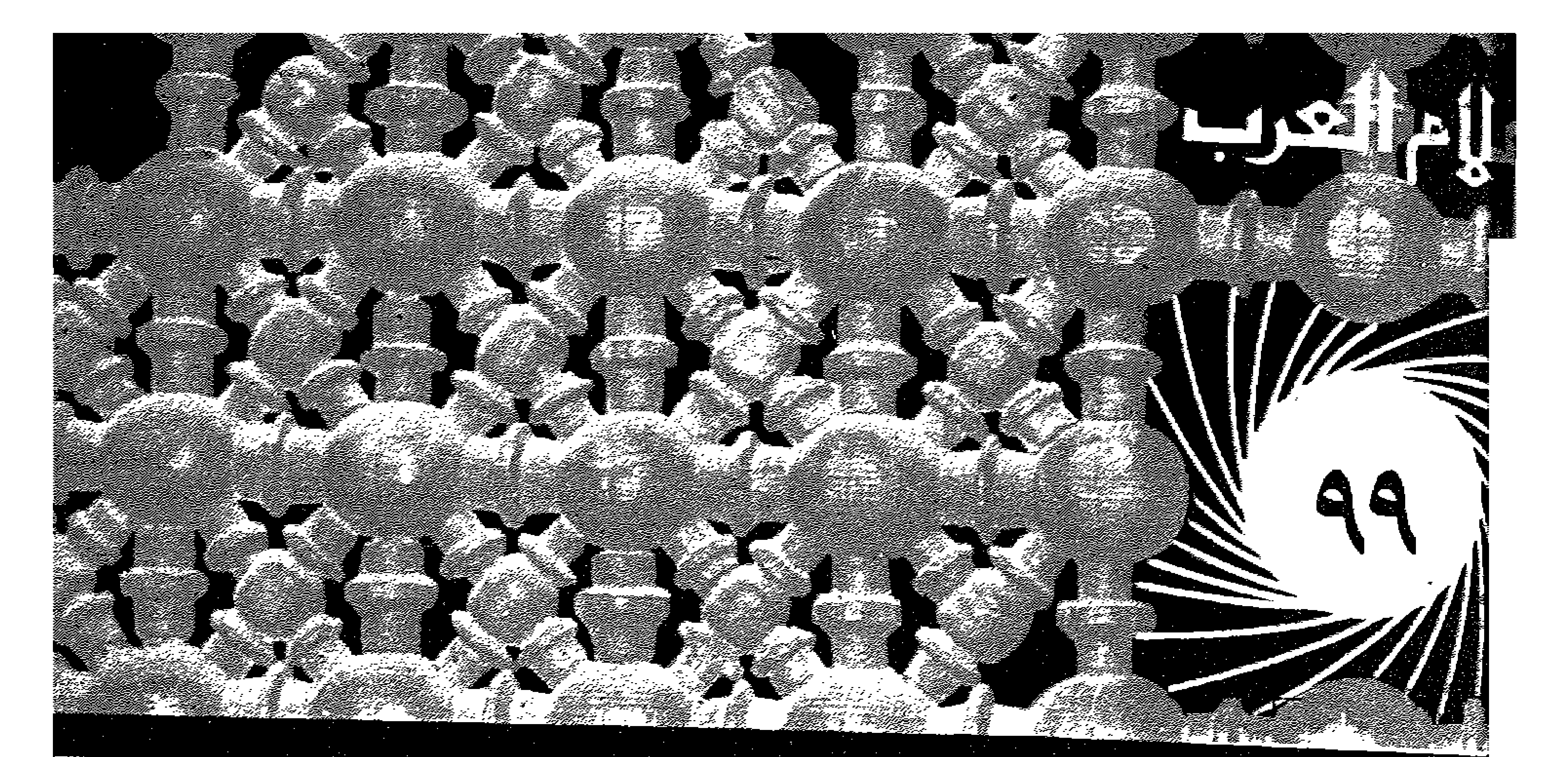


عبد الرحمن الكواكبي

تأليف : دكتور محمد عبد الرحمن برج

الهيئه
المصريه
العامه
للكتاب



أعلام العرب

عبد الرحمن الكواكبي

تأليف : دكتور محمد عبد الرحمن برج

الهيئة المصرية العامة للكتاب
دار التأليف والنشر
١٩٧٢

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

ما أظن ان التاريخ العربى الحديث سيغفل فى يوم من الأيام عن ذكر الثائر العربى العملاق عبد الرحمن الكواكبى • وما أظن أنه سيبخل أن يوسع له فى صفحاته أكبر نصيب وأوفى مساحة ، بل ما أظن أن أمتنا العربية ستنسى فضل هذا العلامة الكبير عليها •

لقد آمن بأمته وبحقها فى الحرية والاستقلال وبأنها جديرة أن تتبوأ المكانة التى اختصها الله بها دون سائر الامم فكانت خير أمة أخرجت للناس •

انطلقت صيحة الكواكبى فى وقت ران اليأس فيه على النفوس وخيم الاستسلام على القـــلوب ، فأخذ يبعث الهمة ويذكر بالأمجاد والمفاخر• يذكر أبناء هذه الأمة أنهم أعرق الأمم اتباعا لأصول تساوى الحقوق وتقارب المراتب فى الهيئات الاجتماعية وأنهم أفضل الأقوام لأن يكونوا مرجعا فى الدين وقدوة للمسلمين لأن الرسالة السماوية نزلت فيهم • ولذلك فانه اذا ما أريد اختيار خليفة للمسلمين يرعى شـــئون دينهم ويسهر على حماية شريعتهم ، ينبغى أن يكون هذا

الخليفة عربيا قرشيا كسابق العهد عندما كان الأمر بيد العرب والخلافة الاسلامية منحصرة فيهم • فلما خرجت منهم اعوج أمر هذا الدين وتدهور شأنه لأن الأمر صار الى غير أهله •

على ان الفضل الكبير الذى تدين به الأمة العربية للكواكبى أنه نظر اليها نظرة الطبيب الى المريض فأخذ يفتش عن مواطن الداء يبغى استئصاله ويقر العلاج الحاسم اللازم له ويجوب أنحاء الوطن العربى يستقصى وينقب ويسأل ويبحث حتى يكون ما يقرره من علاج لهذا الانحطاط الذى ران على أمته علاجا شافيا ناجعا •

ولقد شهدت الامة العربية عددا من دعاة الاصلاح قبل الكواكبى وبعده ، لكن الشىء الذى بز به هذا المصلح العظيم أقرانه الأخيرين أنه أحسن تشخيص الداء فأحسن ذكر الدواء • جاءت كتابته كتابة باحث علمى عملى يحلل ويذكر الاعراض ويصف الداء وسببه والعلاج الناجع له • فهو لا يرجع أسباب انحطاط الامة العربية الى جانب واحد أو الى شىء معين ، لكنه يرجعه الى أسباب عدة ومنازع شتى ثم هو يجمله فى أسباب دينية وأخرى سياسية وغيرها أخلاقية • يتصدر الاسباب الدينية موقف بعض العلماء من ديننا الحنيف السمح ، هؤلاء الذين أدخلوا على الدين ما ليس فيه وما لم يدع به نبينا صلى الله عليه وسلم ، فلم يعد بسيطا كما كان انما أصبح التشدد والتعصب سماته والخرافات والبدع مظاهره •

كذلك يرجع الاسباب السياسية الى الاستبداد الذى فرض على أبناء هذه الامة فحرمهم حرية القول والعمل وأفقدهم الامن والأمل • أما الاسباب الاخلاقية فأفاض فيها الكواكبى وبسط وأطال وكان صريحا عنيفا فى وقوفه فى وجه أولئك اليائسين المتشككين المشككين فى مقدرة هذه الامة رغم عظم قدراتها • فهو يقول على لسان رئيس جمعية أم القرى التى تخيل عقدها فى مكة للبحث والتدارس فى

شئون المسمين . ينبغي أيها السادات أن لا يهولنا ما ينبسط في جمعيتنا من تفاقم أسباب الضعف والفتور كيلا نيأس من روح الله وأن لا نتوهم الاصابة في قول من قال ان أمتنا ميتة فلا ترجى في حياتنا ، كما لا اصابة في قول من قال اذا نزل الضعف في دولة أو أمة لا يرتفع . فهذه الروما واليونان والامريكان والطليان واليابان وغيرها كلها أمم أمثالنا استرجعت نشأتها بعد تمام الضعف وفقد كل اللوازم الادبية للحياة السياسية ؛ ثم هو يحمل في شدة على هؤلاء الدعاة بأقوال كانت السبب في استسلام الكثيرين وعجزهم عن تغيير أحوالهم بقولهم ان المسلم مصاب وأن الله اذا أحب عبدا ابتلاه ، وان أكثر أهل الجنة البله أو قولهم حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه الى آخر هذه الأقوال .

ويرى الكواكبي ان الامة العربية أحوج ما تكون لشبابها رجال المستقبل وصانعي مجدها في غدها ويخشى من تسلط أفكار اليأس والاستسلام التي يبثها من بيدهم أمر هؤلاء الشباب ، اني أرى ان هذا الفتور بالغ في غالب أهل الطبقة العليا من الامة ولا سيما في الشيوخ لأننا نجدهم ينتقصون أنفسهم في كل شيء ويتعاجزون عن كل عمل ويحجمون عن كل اقدام ويتوقعون الخيبة في كل أمل .. وهؤلاء الواهنة يشق عليهم مفارقة حالات ألفوها عمرهم كما يأنف الجسم السقم فلا تلذ له العافية ، فانهم منذ نعومة أظفارهم تعلموا الادب مع الكبير يقبلون يده أو ذيله أو رجله وألفوا الاحترام فلا يدوسون الكبير ولو داس رقابهم وألفوا الثبات ثبات الأوتاد تحت المطارق وألفوا الانقياد ولو الى المهالك وأنفوا أن تكون وظيفتهم في الحياة دون النبات ذاك يتطاول وهم يتقاصرون ذاك يطلب السماء وهم يطلبون الارض كأنهم للموت مشتاقون . وهكذا طول الألفة على هذه الخصال قلب في فكرهم الحقائق وجعل عندهم المخازي مفاخر فصاروا يسمون التصاغر أدبا والتذلل لطفا والتملق فصاحة واللكنة رزانة وترك الحقوق سماحة وقبول الاهانة تواضعا ...

وبعد أن يحمل الكواكبى على هؤلاء الذين ألفوا الفتور والخور يخشى أن يبثوا سمومهم فى الناشئة فهو يقول «وليعلم ان الناشئة الذين تعقد الامة آمالها بأحـلامهم عسى يصدق منهـا شيء وتتعلق الأوطان بحبال همتهم عساهم يأتون فعلا هم أولئك الشباب ومن فى حكمهم المحمديون المهذبون الذين يقال فيهم ان شباب رأى القوم عند شبابهم الذين يفتخرون بدينهم ٠٠ الذين يعلمون أنهم خلقوا أحرارا فيأبون الذل والأســار الذين يودون أن يموتوا كراما ولا يحيون لئاما ٠٠ الذين يحبون وطنهم حب من يعلم أنه خلق من تراب ٠٠ والذين يعشقون الانسانية ويعلمون ان البشرية هى العلم والبهيمية هى الجهالة ٠٠ الذين يعتبرون ان خير الناس أنفعهم للناس ٠٠ الذين يعرفون ان القنوط وباء الآمال والتردد وباء الاعمال ٠٠ الذين يفقهون أن القضاء والقدر هى السعى والعمل ٠ الذين يوقنون ان كل ما على الارض من أثر هو من عمل أمثالهم البشر فلا يتخيلون « المقدرة ولا يتوقعون من الأقدار الا خيرا ٠ »

كذلك رأى الكواكبى ان أحد أســباب تخلف أمته هى أنها لا تتبع ما نسميه اليوم بالنظام الاشتراكى واذا كان الكواكبى لم يدع الى هذا المذهب صراحة فان ما نادى به هو لب الاشتراكية وجوهرها٠ لقد نادى بأن توزيع الاراضى فيه إجحاف بالفقراء والفلاحين والعمال واشترط لحيازة المال بعض الشروط : «الشرط الأول أن يكون احراز المال بوجه مشروع حلال أى باحرازه من بذل الطبيعة أو فى مقابل عمل ٠ والشرط الثانى أن لا يكون فى التحول تضييق على حاجيات الغير كاحتكار الضروريات أو مزاحمة الصناع والعمال الضعفاء أو التغلب على المباحات مثل امتلاك الأراضى التى جعلها خالقها مراحا لكافة مخلوقاته » ٠

أما دعوته الى تعليم المرأة فقد سبق بها كل المصلحين الآخرين مثل قاسم أمين وغيره ومن قوله فى هذا المقام ، ان لانحلال أخلاقنا

سببا آخر يتعلق بالنساء وهو تركهن جاهلات على خلاف ماكان عليه أسلافنا حيث كان يوجد فى نسائنا كأم المؤمنين عائشة رضى الله عنهـا التى أخـــذنا عنهـا نصف ديننا ، وكمئات من الصحابيات والتابعيات راويات الحـديث والمتفقهات فضـــلا عن ألوف العالمات والشاعرات اللاتى فى وجودهن فى الصدر الاول بدون انكار حجة دامغة ترغم أنف غيرة الذين يزعمون ان جهل النساء أحفظ لعفتهن فضلا عن أنه لا يقوم لهم برهان على ما يتوهمون حتى يصح الحكم بأن العلم يدعو للفجور ، وأن الجهل يدعو للعفة • نعم ربما كانت العالمة أقدر على الفجور من الجـــاهلة ولكن الجاهلة أجسر عليه من العالمة ثم ان ضرر جهل النساء وسوء تأثيره فى أخلاق البنين والبنات أمر واضح غنى عن البيـــان وانما سوء تأثيره فى أخلاق الأزواج فيه بعض خفاء يستلزم البحث •• » •

هـــذه بعض لمحات سريعة عارضة لجوانب العظمة فى دعـــوة الكواكبى • والامم فى محبتها أشد ما تكون حاجة الى تاريخها تفتش فيه وتنقب وتبحث عن جوانب العظمة الكامنة فى هذا التاريخ تتخذ منه زادا يعينها فى نضالها ونبراسا يضىء لها الطريق ويحيى موات الأمل فى تلك النفوس التى يسعى التخاذل الى أوصالها ويثبط بعض تلك الهمم •

ولقـــد عشت فترة طويلة من الوقت ادرس الكواكبى ودعوته الاصلاحية التى نادى والصيحة الثورية التى انطلق بها قلمه وذلك حين عهـــدت الى جامعة الجزائر من بين ما عهدت الى تدريس مادة اليقظة العربية لطلابها فى ليسانس قسم التاريخ ، فلم أجد أمتنا أحوج ما تكون لشىء مثل حاجتها الى ما نادى به الكواكبى وما دعا اليه • وكأنى بالكواكبى يعيش معنا أيامنا هذه ويرى أمتنا العربية على ما هى عليه فيكتب فى أســـباب ذلك وعلاجه ذلك ان ما كتبه الكواكبى لم يكن غثاء أذرت به الرياح أو كلمـــات طوتها الأيام

والسنون مثلما طوت غيرها من الكلمات والكتابات ٠ ولكن كلمات الكواكبي وكتاباته كانت صادرة عن مبـــادىء عربية أصيلة ووعي عربي كبير واحساس بمواطن الضعف في هـــذه الامة ٠ وما أحوج علماء ديننا وما أشد حاجة شبابنا وفتياتنا بل ما أشد حاجة كل فرد من أبناء أمتنا أن يأخذ من كلمات الكواكبي دليلا ونبراسا نستضيء به في مرحلة حاسمة من مصيرنا ينبغي أن نجمع فيه أسباب القوة والعزة وأن ننفض عن أنفسنا كل دعوة يأس وهمسة شــــك في مقدراتنا وقدراتنا ٠

أما حياته نفسها فكانت بحق نموذجا لشخصية عظيمة أبت الركون الى الظلم والضيم فثـارت في وجه هذا الظلم صارخة غير مستسلمة له ولا راضية به ٠ وسيلمس القـارىء الكريم حين يمر على صفحات هذا الكتاب ان صيحة الكواكبي للمناداة بالحرية وما لقيه بسببها من سجن وتشريد جاءت في وقت أحصى على الناس كل حركاتهم وسكناتهم وأصبح الشك في أي شخص كفيل بزجه في غياهب السجون٠ لكن ذلك لم يزد الكواكبي الا ايمانا بأن الاستبداد هو عدو الحق والحرية وقاتلهما ٠ ولما أحس ان أمته رضيت بهذا الاستبداد واستكانت له أخذ يحسها على ما صارت اليه حالها ومآلها يشعرها بحقها ٠ فهو يقول :

ان المســـــتبد يود أن تكون رعيته بقرا تحلب وكلابا تتذلل وتتملق وعلى الرعية أن تدرك ذلك فتعرف مقامها منه هل خلقت خادمة له أو هي جاءت به ليخدمها فاســـتخدمها ؛ والرعية العاقلة مستعدة أن تقف في وجه الظالم المستبد تقول له لا أريد الشر ثم هي مســـــتعدة لأن تتبع القول بالعمل فان الظالم اذا رأى المظلوم قويا لم يجرؤ على ظلمه ؛

كان الكواكبي يؤمن بأن الاحساس بالظــلم هو بداية الطريق للحرية ومن هنا ينبغي أن يوضع الكواكبي بالنسبة لأمتنا في مصاف

كبار كتاب الثـــورة الفرنسية من أمثال فولتير وجان جاك روسو ومونتسكيو وغيرهم ٠

أما دوره في اليقظة العربية فلا يختلف المؤرخون على أنه كان أول من وضع لها أسسها وأشاد بأهميتها ٠ نادى بالقومية العربية قبل الكواكبي بعض المسيحيين العرب الذين تثقفوا بالثقافة الغربية أمثال ناصيف اليازجي وبطرس البستاني وكان بدء حركة اليقظة العربية على يد المســـيحيين العرب أمرا طبيعيـا ذلك ان المبشرين البروتستانت والكاثوليك قاموا بالدعوة الى مذهبهم من العرب وكان من الطبيعي أن يكون نشاطهم واتصالهم مع المسيحيين العرب وحتى تنجح دعوتهم بدأوا في ترجمة الانجيل الى اللغة العربية واستعانوا في هذا المضمار بأعاظم أدباء العرب في ذلك العصر كي يتوصلوا الى ترجمة بليغة أدبية ذات قيمة ٠ كما أنهم بذلوا جهودا جبارة لتعلم اللغة العربية تعلم اتقان كي يستطيعوا أن يخطبوا بها بين الناس بطلاقة وبلاغة كما أنهم أسرعوا الى انشاء المدارس التى تعلم اللغة العربية حتى تنجح دعوتهم ودعايتهم بين الناس ٠

وهكذا مضت حركة اليقظة العربية في أول أمرها على يد المسيحيين العرب ٠ وكانت نتيجة اهمــال العثمانيين لتعليم اللغة العربية ومطاردتها في العصر العثماني ان اللغة العربية لم تجد سوى ملجأ واحدا هي الارساليات التبشيرية المسيحية في بلاد الشـــام بالذات ٠

ثم كانت دعوة الكواكبي لحركة بعث الامة العربية فجاءت دعوته أول دعوة في مجال اليقظة العربية على يد أحد أبنائها المسلمين ٠ ولم يكن ذلك عن تعصب من الكواكبي تعصبا دينيا ، فالمعروف ان الكواكبي نبذ التعصب ورآه آفة الخطر يتجاوز خطره كل آفة أخرى٠ **لقـد رأى ان رابطة الوطن ينبغي أن تكون فـــوق كل رابطة(١) ٠**

---

(١) يوسف أسعد داغر : مصادر الدراسات الادبية جـ ٢ القسم الاول سنة ٣٣٢

ففى كتابه « أم القرى » يتطرق المؤلف خلال أبحاثه عدة مرات الى قضايا الامة العربية لأنه يعتقد ان العرب هم الوسيلة الوحيدة لجمع الكلمة الدينية بل الكلمة الشرقية ٠ وينتقـــد الكواكبى الحكومة العثمانية انتقادا مرا ويصرح بأن حقوق العرب مهضومة ويقول من أهم الضروريات أن يحصل كل قوم من أهالى تركيا على استقلال نوعى ادارى يناسب عاداتهم وطبائع بلادهم ٠ ثم انه ينفى عن العرب التعصب الدينى والجنسى وللبرهنة على ذلك يشير الى عدم اشتراك البلاد العربية فى حوادث لبنان (١٨٦٠) ويقول (واما حوادث لبنان والشام وحلب فى القرن السابق القرن التاسع عشر) فما كانت متولدة عن تعصب دينى أو جنسى بل من غرور جماعة من الدروز بالانكليز وجماعة من المسيحيين بنابليون الثالث (١)

ونادى الكواكبى بأنه اذا كان على العالم الاسلامى أن يقف فى جبهة واحدة فلا بد أن تكون القيادة عربية وأن يكون مركزها مكة (أم القرى) لا اسطنبول (٢) ٠

وبعد فما احوجنا فى وقتنا هذا أن نمثل أقوال المخلصين من أبناء أمتنا العربية وأن نسترشد بهذه الاقوال وأن نســـتعين بها ونرجـــع اليهـــا ٠ وما أحوجنا الى أن نتمثل دور هؤلاء المخلصين ونضالهم وكفاحهم كمثل أعلى ونموذج طيب صالح فى وقت أصبح شباب هذه الامة أحوج ما يكون للمثل والقدرة الصالحة يقتدون بها ويهتدون وماتوفيقى آلا بالله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون٠

جامعة الجزائر فى ١٩٧١/١/١

---

(١) ساطع الحصرى : نشوء الفكرة القومية ص ١٩٧ ط ٤ ٠

(٢) محمد انيس : الدولة العثمانية والشرق العربى ص ٢٧٠

الفصل الأول

عصر الكواكبي

ينبغي لمن يؤرخ لعبد الرحمن الكواكبي أن يتناول بالدراسة العصر الذى عاش فيه الكواكبي وأن يعرض لمظاهر الانحطاط فى الدولة العثمانية وحكمها للبلاد العربية . ذلك أن الكواكبي تصدى لهذا الاستبداد الذىشهدته البلاد العربية علىعهد السلطان عبدالحميد الثانى (١٨٧٦ ـ ١٩٠٩) ثم ان كتـــابه الذى ألفه بعنوان طبائع الاستبداد ، كان موجها ضد السلطان عبد الحميد بالذات وان لم يشر الكواكبي الى ذلك فى صراحة . كمـا أن حيـــاة الكواكبي نفسها وهجرته الى مصر كان فرارا من وجه السلطان المستبد عبد الحميد. كذلك جاء كتابه أم القرى ، يحمل حملة شعواء على الاتراك العثمانيين وعلى تاريخهم فهو يورد على لسان أحد أمراء المسلمين مناقشة دارت بينه وبين العضو الهندى فى جمعية أم القرى ما يؤكد ذلك ويدل عليه دلالة واضحة .

يقول الأمير : أرجوك ألا تنظر للمسألة بنظر العوام بل بنظر حكيم سياسى فابعد النظر ماضيا ومستقبلا ، وقلب صفحات التاريخ بدقة تجدان ادارة الدين وادارة الملك لم يتحدا فى الاسلام تماما الا فى عهد الخلفاء الراشدين وعمر بنعبد العزيز فقط رضى الله عنهم. واتحدت نوعا فى الامويين والعباسيين ثم افترقت الخلافة عن الملك. وأما سلاطين آل عثمان الفخام فانى أذكر لك نموذجا من أعمال لهم أتوها رعاية للملك وان كانت مصادمة للدين فأقول هذا السلطان

محمد الفاتح وهو أفضل آل عثمان قدم الملك على الدين فاتفق سرا مع فرديناند ملك (الاراغون) آلاسبانيولى ثم مع زوجة (ايزابيلا) على تمكينهما من ازالة ملك بنى الأحمر آخر الدول العربية فى الاندلس، ورضى بالقتل العام والاكراه على التنصر بالاحراق وضـياع خمسة ملايين من المسلمين باعانتهما باشغاله أساطيل أفريقيا عن نجدة المسلمين ..

وهذا السلطان سليم غدر بآل العباس واستقصاهم حتى انه قتل الأمهات لأجل الأجنة ، وبينما هو يقتل العرب فى الشرق كان الاسبانيون يحرقون بقيتهم فى الاندلس ، وهذا السلطان سليمان ضايق ايران حتى ألجأهم الى اعلان الرفض المكفر .. »

ثم يعود على لسان هذا الامير فى كتابه أم القرى يعدد ما فعله العثمانيون منها انهم سعوا فى انقراض خمسة عشر دولة وحكومة اسلامية وأغروا الروس على التتار وهولاندة على جاوة وتعاقبوا على تدويخ اليمن ، فأهلكوا الى الآن عشرات المسلمين . ثم يأتى على ما أباحه السلطان عبد الحميد من الربا والخمور وأبطال الحدود . ويمضى الكواكبى فى صفحات كاملة من كتابه أم القرى يحمل حملة كبرى على العثمانيين فيقــول : أليس الترك قد تركوا الامة أربعة قرون ولا خليفة ، وتركوا الدين تعبث به الأهواء ولا مرجع، وتركوا المسلمين صما بكما عميا ولا مرشد . أليس الترك قد تركوا الأندلس مبـادلة وتركوا الهند مساهلة وتركوا الممالك الآسيوية للروسيين وتركوا قارة أفريقيا الاسلامية للطامعين وتركوا المداخلة فى الصين كأنهم الأبعدون .

« أليس الترك قد تركوا وفود المسلمين يعودون خائبين وتركوا المستنصرين بهـم عرضــة للمنتقمين وتركوا ثلثى ملـكهم طعمة للمتغلبين . فهل والحالة هذه ما آن لهم أن يستيقظوا ويصبحوا من

النـادمين على ما فرطوا فى القرون الخالية **فيتركون الخلافة لأهلها والدين لحماته ٠٠** » يشير الكواكبى بالطبع الى حق العرب فى الخلافة وحماية الدين ٠

ويؤكد الكواكبى انه غير متعصب للعرب وانما يراه ما لا بد أن يراه كل حر مدقق يتفحص الامر من أن الغيرة على الدين وأهله والاستعداد لتجديد عز الاسلام منحصرآن فى أهل البدوية من العرب حيث ان المشـيئة الالهية قد حفظتهم من تلك الأمراض الأخلاقية كفالج الحرية فى الحواضر باعتقاد أهلها أنهم خلقوا آنعـاما للامراء وكجـــذام التربية فى المـدن بوصفهم النســـاء فى مقـام روابط للاستمتاع ٠٠ » الى آخر ما جاء فى كتاباته مما سوف نتناولها فى موضعها من هذا الكتاب بمشيئة الله ٠

كان من الضرورى آذا أن نتناول بالدراسة العصر الذى عاش فيه الكواكبى وهو النصف الثانىمن القرن التاسع عشر وهى الفترة التى ولد فيها الكواكبى وعاش وترعرع ثم حمل القلم دفاعا عن حق أمته أمام صروح الظلم والطغيان التى استبدت بهـــا وطغت عليها وارسفتها بقيود ثقيلة لا سبيل الى الفكاك منها الا بأن يحس أهلها بحقهم فى الحرية والاستقلال والسيادة ٠

من المعروف ان الدولة العثمانية وصلت أوج اتسـاعها وقمة مجـدها فى عهد السـلطان سليمان القانونى فامتدت الامبراطورية العثمانية على عهـــده من الدانوب الى الخليـج العربى ومن أراضى الاستبس فى أوكرانيا الى الشلال فى جنوب مصر ٠ وحين استكملت الدولة العثمانية عناصر قوتها ونظمها بدأت تدخل فى دور التدهور٠

وجاء تدهور الدولة العثمانية من عدة عوامل داخلية أهمها ان السلاطين العثمانيين بعد سليمان القانونى كانوا سلسلة من الحكام الضعاف الذين يفتقرون الى دراية باحتياجات الامبراطورية الجديدة٠

كذلك اختل نظام الانكشارية حيث فقد هذا الجيش بالتدريج كل ماكان له من نوايا وتحول آخر الأمر الى آلة فساد وفوضى فتضاءل ارتباط الانكشارية بثكناتهم ولم تعد حرفتهم الجندية الصرفة كما كان أمرهم على عهد قوة الدولة العثمانية ، وانما أصبحت الجندية مهنة ارتزاق فلم يعد يذهب كثير منهم الى ثكناتهم الا لاستلام مرتباتهم ووقف جنود الانكشارية حجر عثرة أمام كل اصلاح حتى ان السلطان سليم الثالث الذى حكم الدولة العثمانية ما بين سنتى ١٧٨٩ — ١٨٠٧ دفع ثمن حياته عندما أقدم على ادخال عدد من الاصلاحات فى الدولة العثمانية . فلقد كان سليم معجبا بالثقافة الفرنسية وأراد أن تكون تركيا شبيهة بأوروبا فى التقدم . لكن الانكشارية وقفت للسلطان سليم بالمرصاد فخلعوه عن العرش ثم اغتالوه بغية اجتثاث جذور الاصلاح من جذوره .(١)

وظلت الانكشارية عقبة كأداء فى سبيل الاصلاح حتى نجح السلطان محمود الثانى الذى تولى عرش الدولة العثمانية فى مطلع القرن التاسع عشر (١٨٠٩ — ١٨٣٩) فى القضاء عليهم نهائيا سنة ١٨٢٦ . وكانت الهزائم قد توالت على الدولة العثمانية فى عهده . فكان عليه أن يعترف بالحكم الذاتي للصرب وتبع ذلك ثورة على باشا فى البانيا (١٨٢٠ — ١٨٢٥) وثورة اليونان فى المورة . ولما كان السلطان العثمانى غير قادر على سحق ثورة اليونان فقد استعان محمود الثانى بمحمد على لسحق هذه الثورة . وحاول السلطان محمود الثانى أن يكسب العلماء الى جانبه ليؤيدوه فيما أقدم عليه من اصلاحات لكنهم كانوا كالانكشارية عقبة فى سبيل كل اصلاح.

---

(١) الحصرى : البلاد العربية والدولة العثمانية ص ٧٤
وكذلك ارجع الى Devereux: The First Ottoman Constitutional period pp. 30-31.

وكان هؤلاء العلماء سواء من منهم فى القضاء أو الامامة أو الافتاء أو مشايخ الطرق أو المعلمين يشتد نفوذهم ويقوى كلما ضعفت الدولة العثمانية وصارت الدولة تلجأ الى وساطتهم فى كثير من الامور وتستصدر منهم الفتاوى المختلفة ومن أجل هذا سعت الى استرضائهم فى شتى المناسبات . بل صار أصحاب المطامع يسعون وراءهم لتحقيق أغراضهم الخاصة . وفى الوقت الذى كان عددهم يزداد ونفوذهم يشتد كان المستوى العلمى للكثيرين منهم ينحط وثقافتهم الدينية تضعف وصارت تنتشر بينهم ضروب من التعصب الأعمى .

ومن المعروف ان الكواكبى فى كتاباته تصدى أول ما تصدى لهؤلاء العلماء الذين وصفهم بالمدلسين الذين ضيعوا الدين وأهله . ورأى ان فئة منهم اخترعوا عبادات وقربات لم يأت بها الاسلام ويقول عنهم فكأن الله تعالى ترك لنا ديننا ناقصا فهم أكملوه .. ومنهم قوم يعتبرون البلادة سلاحا والخمول خيرا والخبل خشوعا والصرع وصولا والهذيان عرفانا والجنون منتهى المراتب السبع للكمال » .

ثم كان أن اقدمت الدولة العثمانية على عهد السلطان عبدالمجيد على محاولة اتمام حركة الاصلاحات وتنظيم أمورها على نحو ما هى عليه فى الدول الاوربية الاخرى المتقدمة . ولذلك عرفت هذه الاصلاحات بالتنظيمات ، لكن حركة الاصلاح هذه أيضا لم تؤت ثمرتها المرجوة فجاءت محاولة للتقليد دون أن يؤمن القائمون بأمرها ان شئون كل دولة تختلف عن الاخرى .

وأشار الكواكبى فى كتابه أم القرى الى هذه التنظيمات فوصف حال الدولة العثمانية بأنها كانت قبلها خيرا منها بعدها فعطلت أصولها القديمة ولم تحسن التقليد ولا الابداع فتشتت حالها ولا سيما فى العشرين سنة الاخيرة التى ضاع فيها ثلثا المملكة وضرب الثلث الباقى وأشرف على الضياع لفقد الرجال .. »

واذا كانت الدولة العثمانية قد حددت سلطات الولاة الا أنها اقتبست كثيرا من النظم الاجنبية وغالت في المركزية فانتقلت من الافراط الى التفريط وعانت البلاد العربية كثيرا من هذا الاجراء ٠ وحاول بعض الولاة المصلحين مثل مدحت باشا وغيره أن يجعلوا الدولة تخفف من غلوائها في المركزية فذهبت جهودهم ادراج الرياح٠

وتستند هذه التنظيمات التي أصدرتها الدولة العثمانية الى مرسومين صدر الأول سنة ١٨٣٩ وعرف باسم منشور كلخانة نسبة الى قصر كلخانة الذى صدر فيه والثانى سنة ١٨٥٦ عرف باسم منشور التنظيمات الخيرية ٠ يقرر الاول الحقوق التي ينبغي أن يتمتع بها كل فرد في الدولة العثمانية وهي : أمنية الروح والعرض والمال ٠ ذلك أن أبناء الدولة العثمانية حتى ذلك الحين لم يكونوا يأمنون على أرواحهم أو أموالهم ٠ فكثيرا ما كان الاشخاص يعدمون من غير محاكمة ولم يكن ذلك يتم بأمر السلاطين فحسب بل بأمر الولاة كذلك ٠ وكانت الدولة العثمانية تختار للولايات ولاة ليسوا بذات كفاءة حتى أصبحت الامارة وراثية في كثير من البيوت ، كامارة مكة وامارات العشائر الضخمة في الحجاز والعراق ٠

وقد فسر الكواكبي السر في ذلك بأن الهدف منه « أن يكون الامير منفورا ممن ولي عليهم مكروها عندهم فلا يتفق معهم ضد الدولة » ٠

والى جانب منشور كلخانة صدر منشور آخر عقب حرب القرم التي وقعت بين روسيا وتركيا سنة ١٨٥٦ عرف بمنشور التنظيمات٠ أكد هذا المنشور الاخير ما سبق أن قرره المنشور السابق ولكنه أضاف اليه بندا هاما هو معاملة جميع تبعة الدولة (الغير المسلمين من أبناء الدولة) مهما كانت أديانهم ومذاهبهم معاملة متساوية مع المسلمين من أبناء الدولة ٠ كما صرح في الوقت نفسه ابقاء الامتيازات

الممنوحة لرؤساء الملل غير المسلمة على أن تنظم بقوانين جديدة . كما وعد باصدار قانون جديد لاصلاح شئون الولايات . وتضمن المنشور كذلك ان جميع الوظائف فى الدولة أصبحت من حق كل رعايا السلطان بلا استثناء أو تفريق بينهم كما سمح للأجانب بالملكية فى الدولة بشروط خاصة .(١)

كان الدافع والأساس وراء اجراء هذه التنظيمات المذكورة هو ضغط الدول الاوربية ومطالبتها بالاصلاح خاصة بالنسبة للمسيحيين التابعين للدولة العثمانية . وبرغم هذا لن يكن الاصلاح عن اقتناع وايمان من جانب القائمين عليه والمنادين به برغم وجود عدد من رجال الدولة المستفيدين الذين كانوا يرون ضرورة اصلاح جهاز الدولة وتجديده على أساس اقتباس النظم الاوربية من غير مساس بالاحكام الشرعية . وعلى كل فثمة نقد شديد يوجه الى حركة التنظيمات الخيرية ذلك ان الحماس كان شديدا للأخذ بنظم الغرب وأساليبه ، لكن هذا الحماس لم يتعد الجانب الشكلى فقط دون وجود الظروف الموضوعية التى تمكن من فاعليتها . وهذا ما عبر عنه الكواكبى بقوله « ان الدولة أحسنت التقليد ولم تحسن الابداع » .

وكانت النتيجة ان أصبحت التنظيمات مجرد مبادىء مكتوبة على ورق فلم يستطع السلطان أن ينفذ ما جاء بها بل نجح أعداء التقدم والاصلاح فى ابعاد رشيد باشا الذى كان من وراء هذه التنظيمات يؤيدها ويتحمس لها . ونجحوا فى ذلك حتى عينه السلطان سفيرا لتركيا فى باريس سنة ١٨٤١ . (٢) ولم تتحقق التسوية بين المسلمين والمسيحيين فظلت الوظائف العامة لا سيما

---

(١) Devereux: The First Ottoman Constitutional Period, p. 23.

(٢) Revereux: p. 23.

الوظائف الادارية والقضائية شبه محصورة بالمسلمين فعلا وان لم يكن قانونا • وظلت الدول الاوربية تستفيد من هذه الاوضاع في بسط حمايتها على المسيحيين وتحريكهم بين الحين والآخر فاستمرت فرنسا تدعى حمـــاية الكاثوليك في جميع أنحاء الدولة العثمانية وظلت روسيا تعتبر نفسها حامية الارثوذكس وصـــارت انجلترا تحمى البروتستانت فضلا عن اتصالها ببعض الطوائف الأخرى (١) •

وشهدت البلاد العربية تغييرات كبيرة على عهد التنظيمات فقد أخذت الدولة العثمانية تطبق فيها هذه التنظيمات بدرجات متفاوتة• فسوريا وبيروت وحلب كانت أولى الولايات التي طبقت فيها هذه التنظيمات تطبيقا شـــاملا وسريعا • أما تطبيقها في ولايتي بغداد والبصرة فكان أقل سرعة وأقل شمولا • أما ولايتي اليمن والحجاز فلم تشهد من التغييرات الا الشيء القليل • ولقد كان للقرار الخاص بتنظيم شئون البطريركيات والمجالس الملية ان زاد ترابط الجماعات المسيحية وأخذت الدول الاوربية خلال عهد التنظيمات تتنافس في توسيع نفوذها في البلاد العربية عن طريق تأسيس مدارس تنشر لغتها وثقافتها • وكانت حلب ـ وهي موطن العلامة الكواكبي ـ من تلك الولايات التي نالت حظا كبيراً من هذه المدارس الاجنبية وهذا النفوذ الغربي مما كان له تأثيره على الثقافة والنهضة العلمية فيها بوجه خاص •

وكان من الممكن أن تثمر التنظيمـــات ثمرتها المرجوة لولا هؤلاء الذين كانوا يقفـون في وجه كل حركة اصلاحية في الدولة العثـــمانية واستعان هؤلاء المعارضون بالعلماء الذين أفتى بعضهم بعدم قانونيتها على أساس أنها تعطى لغير المسلمين ما للمسلمين من حقـــوق • وحدث هذا في وقت كانت الاصلاحات مسألة تقتضيها

---

(١) ساطع الحصرى : البلاد العربية والدولة العثمانية ص ٩٣

الضرورة للحيلولة دون ازدياد تدخل الدول الاوربية في أمور الدولة العثمانية بحجة المحافظة على حقـوق الرعايا المسيحيين فى الدولة العثمانية .

ومع حلول عام ١٨٧٦ أصبح الموقف متدهـورا فى الدولة العثمانية فقد فشلت حركة الاصلاحات التى أقدمت عليها الدولة العثمانية والتى أصدرت بشأنها منشورى التنظيمات التى سبق أن أشرنا اليها . وأسوأ من ذلك ازدياد القروض فقد كان لموت السلطان عبد المجيد سنة ١٨٦١ وتولى السلطان عبد العزيز أمور الدولة ان ساء الموقف عن ذى قبل . فقد اشتهر عن السـلطان الجديد اسرافه وبذخه وتوالت الديون على الدولة العثمانية حتى ان الباب العالى اضطر فى أكتوبر سنة ١٨٧٥ الى أن يخصص ميزانية الدولة لتسديد الدين وخسرت الدولة أكثر ممتلكاتها فى البلقان . ورغم تمكن القوات العثمانية من اخماد ثورة الجبل الاسـود والبوسنة والهرسك والصرب وكريت فقد خسرت هذه المقاطعات . كذلك اتحدت ولايتا الأفلاق والبغدان لتشكلا الدولة الرومانية . ولم تكن حالة الولايات العربية بأفضل من ذلك فقد اشتد التدخل الاجنبى فى شئون تونس ومصر بعد أن ازدادت ديونهما وأخذت فرنسا ترنو الى تونس بعد بسط نفوذها على الجزائر سـنة ١٨٣٠ كذلك ازداد النفوذ الفرنسي فى لبنان وغيرها من الاقطار السـورية ونالت الشركات الفرنسية امتيازات عديدة فى تلك البلاد . (١)

ومضت الدولة العثمانية على عهد السلطان عبد العزيز فى تدهور مستمر لا تجد من يوليها العلاج الحاسم الناجع خاصة بعد أن استمرت فى عقدها للقروض حتى عجزت الدولة عن سـداد

---

(١) عبد الكريم غرايبة : سورية فى القرن التاسع عشر . ص ٣٥ .

الديون المستحقة عليها فى مواعيدها • وأعلن فى السادس من أكتوبر سنة ١٨٧٥ عن افلاس الدولة العثمانية •وبادرت الدول الاوربية الى التدخل حفاظا على حقوق دائنيها • فتشكل مجلس للدين العام ضم ممثلين عن بريطانيا وفرنسا والنمسا وايطاليا وألمانيا والدولة العثمانية•ويذكر المؤرخون أن السلطان عبد العزيز كان ينفق من هذه القروض على ملذاته الخاصة وأنه تورط فى الديون بشكل كبير شأنه شأن الخديو اسماعيل•وزار عبد العزيز مصر سنة ١٨٦٣ وكان أول سلطان عثمانى يزورها بعد فتحها على عهد السلطان سليم • كما زار باريس سنة ١٨٦٧ وأقام القصور الضخمة ثم كان ان اشتعلت نيران الثورة البلغارية فى أول مايو ١٨٧٦ وتعرض المسلمون فيها لمذابح أثارت طلاب المدارس الدينية فى اسطنبول الذين قاموا بمظاهرات ضد السلطان وانتهى الأمر بأن اعتبر السلطان عبد العزيز مسئولا عن الضعف المالى والعسكرى الذى عانت منه الدولة العثمانية فصدرت فتوى من شيخ الاسلام بخلعه وانتهت حياته بانتحاره بعد ذلك (١) • وخلفه السلطان مراد الخامس بن عبد المجيد فى ٣٠ مارس ١٨٧٦ لكن سوء صحته واضطراب أعصابه ومرضه بالصرع بدت واضحة على تصرفاته حتى تقرر عدم صلاحيته للحكم فخلع وبويع أخوه عبد الحميد باسم السلطان عبد الحميد الثانى •

وهكذا كانت حالة الدولة العثمانية فى سنة ١٨٧٦ (وهو العام الذى تولى فيه السلطان عبد الحميد الحكم) سيئة للغاية والموقف فيها متدهور بشكل واضح •

وحين نتناول بالحديث عهد السلطان عبد الحميد الثانى ينبغى أن نتناول ذلك بالدراسة المسهبة ، ذلك أن الكواكبى عاش

---

(١) Devereux : p. 33.

الجزء الاكبر من عمره على عهد هذا السلطان ۰ فلقد تولى عبدالحميد الحكم وقد بلغ الكواكبى من العمر ـ كما سيتضح ذلك عند تناولنا لترجمته ـ اثنين وعشرين عاما ، وظل السلطان عبد الحميد يحكم الدولة العثمانية مدة قاربت الثلث قرن ۰ وتوفى الكواكبى قبل أن يخلع هذا السلطان من العرش سنة ١٩٠٩ اثر الثورة الشهيرة التى وقعت فى ذلك الحين والتى أعقبها حكم جماعة الاتحاد والترقى للدولة العثمانية ۰ ثم ان الكواكبى تصدى لاستبداد السلطان عبد الحميد بمثل ما لم يتصد له كاتب آخر فى زمانه وتحمل بسبب ذلك هجره لوطنه الى مصر التى كانت ملجأ الأحرار والمفكرين فى ذلك الحين ۰ ونشر فيها (مصر) كتابه الذى أسماه « طبائع الاستبداد » والذى حمل فيه على الحكم المستبد ، وصدرت أوامر السلطان عبد الحميد بمنع الكتاب من الدخول الى بلاد الدولة العثمانية لما فيها من صيحات حرة ودعوة الى الثورة على الظلم والاستبداد ۰ وبرغم ذلك تسربت نسخ منه خفية الى كثير من الناس فأحدثت دويا كبيرا وأثرا ملموسا فى البلاد العربية ، ومن هنا كان للكواكبى الدور الكبير فى اليقظة العربية الحديثة على نحو ما سنتناوله فيما بعد عندما يحين موضع ذلك من هذا الكتاب ۰

جاء السلطان عبد الحميد الى الحكم بعد خلع أخيه السلطان مراد الخامس ۰ وكان الاخير قد تولى الحكم بعد خلع عمه السلطان عبد العزيز ۰ لكنه نظرا لما اتضح من مرض مراد الخامس وتأثير ذلك على تصرفاته اقدمت الجماعة المستنيرة التى تزعمت حركة الاصلاح فى الدولة العثمانية ـ على خلعه ۰ وكان يتزعم هذه الحركة مدحت باشا ۰ ولد مدحت باشا فى القسطنطينية سنة ١٨٢٢ وتولى مناصب ادارية مختلفة فى الدولة الى أن أصبح واليا على بلغاريا وله من العمر أربعون عاما ، ثم تولى ولاية بغداد عام ١٨٦٨ وأظهر نشاطا وكفاءة ووطنية وسعة أفق لم يظهرها كثيرون غيره من أبناء الدولة ۰

كان مدحت باشا شأنه شأن الشباب التركى المثقف المشبع بروح الثقافة الغربية يرى ان اصلاح الدولة العثمانية يكمن فى وجود جهاز برلمانى يستند آلى دستور مكتوب يلتزم به السلطان وكانت المشكلة ان السلاطين لم يكونوا يشعرون بضرورة الاصلاح الا عندما تدفعهم الاهوال وتحدق الأخطار بالدولة العثمانية من كل جانب • عندئذ يصدرون فرمانات الاصلاح مبتغين بها اقناع الدول الأوربية أنهم بسبيل اتخاذ العديد من وجوه الاصلاح فى شئون الدولة ، فاذا ما زال الخطر نفضوا أيديهم عن هذه الاصلاحات وساعدهم على ذلك وجود الفئات الرجعية من العلماء وغيرهم الذين كانوا يقفون لكل حركة اصلاحية بالمرصاد•وبرغم أن كثيرا من هؤلاء المستنيرين الاتراك ودعاة الاصلاح وجدوا استحالة بقائهم فى داخل أراضى الدولة العثمانية خشية القبض عليهم أو اغتيالهم ، فان عددا منهم بقى يعمل وينظم حركات المقاومة والتصدى للاستبداد •وكان على رأس هؤلاء مدحت باشا • استدعاه السلطان عبد العزيز ليتولى منصب الصدر الاعظم فى يوليو ١٨٧٢ بعد أن أحدقت الاخطار بالدولة العثمانية ، ذلك ان مدحت كان شخصية يحترمها المسئولون الأوربيون والمسيرون لدفة السياسة الأوربية فى ذلك الحين • كان مدحت يحلم بامبراطورية لا يكون فيها تمييز بين مسلم ومسيحى وانما الكل رعايا عثمانيون • وكان بفكره هذا سابق لفكر غيره من الأحرار ، كذلك كان رأيه شأن دعاة الاصلاح غيره • ان أول خطوة لاصلاح أمور الدولة العثمانية هو الحد من نفوذ السلطان (١) •

ولما وجد مدحت استحالة العمل مع السلطان عبد العزيز لم يجد بدا من الاستقالة التى قبلها السلطان على الفور • وكان معنى قبول السلطان عبد العزيز لاستقالته أنه لا يريد أن يساير الركب

Devereux: The First Ottoman Constitutional period pp. 30-31. (١)

التحررى فى الدولة وأنه جاء بمدحت لفترة مستهدفا من وراء ذلك اقناع الدول الاوربية بالكف عن التدخل فى شئون الدولة العثمانية وعلى اثر استقالة مدحت قدم بعض الاحرار المؤيدين لمدحت فى سياسته مذكرة فى التاسع من مارس ١٨٧٦ الى ساسة أوربا . وألقت المذكرة اللوم على السلطان . وقالت المذكرة أنه لو أنـه بدلا من أن تكون أمور الدولة رهن تصرف السلطان كانت هنـاك حكومة صالحة تحكم فى تركيا ، لما كانت هناك مشكلة ما خاصـة بجنس أو بدين . ولو أنه بدلا من ان يحكمنا طاغية يعتبر نفسه ممثل الله فى أرضه فيحكمنا حاكم صالح معه مجلس نيابى يضـم ممثلين لكل جنس ودين لبلغت تركيا دون صعوبة ما هى جديرة به بالنسبة لأرضها وشعبها (١) .

وتطورت الامور بسرعة فقد بانت الحاجة الى اصلاح جذرى وفعال شجع دعاة الاصلاح ان مراد ابن أخى السلطان عبد العزيز كان يدعو للاصلاح ويطالب بالحياة الدستورية . وحاول السلطان عبد العزيز ان يكسب الاحرار الى جانبه ، ويحقق مطالب طلبـة الشريعة الاسلامية من طرد الصدر الاعظم محمود نديم باشا صاحب السمعة السيئة والمجيء بمدحت باشا محله . فعزل السلطان نديم باشا لكنه عين محله رشدى باشا بدلا من المجيىء بمدحت . عندئذ تجمعت القوى المعارضة للسلطان وأجمعوا على ضرورة خلعه . وتم ذلك فى الثلاثين من مايو سنة ١٨٧٦ وتولى عملية اعتقـاله والقبض عليه سليمان حسنى باشا الذى أصبح فيما بعد مدير المدارس العسكرية . وجيىء بمراد سلطانا على الدولة العثمـانية باسم مراد الخامس .

ووعد السلطان مراد الخامس ان يعلن دستورا للبلاد بمجرد أن تستتب الامور ووجه دعوة الى الأتراك الأحرار الذين فروا خارج

(١) Ibid, p. 32.

تركيا ان يعودوا اليها • وبرغم ان السلطان مراد بدت منه هذه الروح الاصلاحية فان الحاشية التى كانت تقف لكل حركةاصلاحية سرعان ما أحاطت بمراد وجعلته ينسى وعوده التي وعد بها • فجاء من يبلغ مدحت على لسان السلطان أنه لا يرغب في وجود مجلس نيابى « فأمتنا لم تبلغ بعد الوقت المناسب لذلك ، ويجب أن تتولى يد قوية زمام الأمور حتى تقضى على الاضطراب الذى يسود البلاد • »

وبدلا من أن يوقع السلطان مراد على مشروع الفرمان الذى أعده مدحت والذى ينص على وجود حكومةدستورية ، أحدث السلطان تعديلا فيه فنص على احترام القوانين التى ينبغي أن ترعى مصالح كل السكان • وبادر مدحت بنشر مشروعه الذى كان قد أعده والذى ينص على الحد من سلطة السلطان واستبدال الصدر الاعظم بمنصب رئيس للوزراء وايجاد مجلس للنواب الى غير ذلك مما عليه الدول الاخرى التى تحكم حكما دستوريا • وكان من شأن ذلكان يزيد من سخط السلطان ولم ير دعاة الاصلاح بدا من التحرك • قابل مدحت أخا السلطان مراد يعرض عليه أن يتولى الحكم حتى يشفى السلطان من مرضه الذى بدا عليه • لكن عبد الحميد رفض على أساس أن القانون العثمانى لا يسمح بالوصاية • ومن ثم تقرر عزل مراد والمجىء بعبد الحميد سلطانا على الدولة العثمانية •

وقبل أن يعلن مدحت ذلك رسميا أراد أن يتجنب ما حدث على عهد أسلافه من السلاطين السابقين حين نكثوا بوعودهم فى الاصلاح • فطلب مدحت مقابلة عبد الحميد واستوثق منه رغبته الجادة في الاقدام على الاصلاح • اشترط مدحت على السلطان عبد الحميد ثلاثة شروط كى يجىء به الى الحكم • أولا ان يصدر دستورا دون تأخير ثانيا أنه كسلطان يتصرف فى مسائل الدولة بناء على استشارة الوزراء المسئولين ثالثا أن يعيد تعيين الرجال

الأحرار الذين عزلهم مراد مثل فايق كمال وسعد الله بك وغيرهم ووافق عبد الحميد على كل ما اشترط عليه مدحت بل ان السلطان عبد الحميد قال أكثر من ذلك اننى لا أقبل الحكم الا على أساس دستورى استشارى •

وتولى السلطان عبد الحميد الحكم وظلت الأحداث التى مرت بها البلاد من قبل والتى أدت الى خلع اثنين من السـلاطين من قبله (عبد العزيز ، مراد الخامس) تؤثر فى نفسيته تأثيرا عميقا وجعلته يخاف على عرشه وحياته •وحملتهعلى اتخاذ سلسلة طويلة ومعقدة من التدابير أفضت الى استبداد لم تشهد الدولة العثمانيـة ومن بينها البلاد العربية له نظيرا من قبل •

ما كاد عبد الحميد يتولى عرش الدولة العثمانية حتى بدأت تصرفاته تناقض وعوده • لم يوافق على مشروع الفرمان الذىأعده مدحت فعدل فيه مثلما فعل السلطان مراد من قبل ثم بدأ يقرب ، اليه المستشارين والشخصيات التى عرفت بكرهها للاصلاحولمدحت باشا ولدعاة الاصلاح لكن الموقف الخارجى بالنسبة للدولةالعثمانية كان من شأنه أن يرغم السلطان على قبول مبادىء الاصلاح التى نادى بها مدحت ولو لفترة محدودة • وتفصيل ذلك ان الموقف فى البلقان تدهور بشـكل ملحوظ نتيجـة لازدياد ثورات الصرب والبوسنة والهرسك وتدخلت الدول الأوربية بعد أن بدأ الجيش التركى يسحق الصربيين فعرضت على السلطان قبوله هدنة غـير رسمية من ١٦ ـ ٢٥ سبتمبر •

وفى اليوم التالى مباشرة (٢٦ سبتمبر) اجتمع السلطـان مع العلماء والاعيان وكبار رجال الدولة وقادة الجيش ليبحث معهم ما اذا كان يقبل مقترحات الدول الاوربية أو يرفضها والتى كانت تقضى بمنح الصرب والهرسك حكما ذاتيا وادخال العـديد من الاصلاحات فى بلغاريا • وانتهز مدحت هذهالفرصة وأعلن للسلطان

ان اقدام الدولة العثمانية على الاعلان عن برنامج للاصلاح كفيـل بتفويت الفرصة على الدول الاوربية للتدخل ٠

وبرغم كره السلطان عبد الحميد للاصلاح الا أنه لم يكن أمامه مفر من ذلك للحيلولة دون التدخل الأجنبى فى البلاد ٠ وتألفت على الفور لجنة لوضع الدستور عهد الى مدحت برئاستها ٠ واذا كان عبد الحميد قد حرص أن يضم فى اللجنة من يثق فيهم أو من يعتقد أنهم مخلصون له ، الا أن صوت الأحرار وآراءهم كانت هى الغالبة خاصة وان مدحت باشا كان رئيس هذه اللجنة ٠ وليس معنى هذا ان مدحت لم تواجهه عقبات فى هذه اللجنة التى بدأت عملها منذ السابع من أكتوبر ١٨٧٦ حتى أتمته فى ٢٠ نوفمبر من نفس العام ، ذلك أن بعض علماء الدين الذين وافقوا على مضض ان تضم اللجنة من يمثل المسيحيين من رعايا الدولة العثمانية ، فانهم أصروا على وجهات نظر معينة تجاه موقفهم من غير المسلمين ولذلك فان مشروع الدستور مثلا لم يشر الى حق المسيحيين فى دخول الجيش ولا الأخذ بشهادتهم فى المحاكم على قدم وساق مع المسلمين ٠ كذلك لم يستطع مدحت النص فى مشروع الدستور على قرار بانشاء المدارس التى تجمع بين أبناء الدولة العثمانية بصرف النظر عن عقيدتهم الدينية ٠ وما أن انتهت اللجنة من عملها حتى وجد مدحت ان بعض حاشية السلطان عبد الحميد قد أوعزت له ان مشروع الدستور ينتقص من سلطاته وبالتالى ينتقص من هيبته أمام الرأى العام ٠ كذلك لم يؤخذ بوجهة نظر اللجنة التى أقرت استبدال وظيفة الصدر الاعظم برئيس للوزراء يكون من حقه اختيار الوزراء المسئولين أمام مجلس النواب ٠ وتعلل السلطان عبدالحميد فى رفضه لبعض توصيات اللجنة أن هنـــاك ثغرات فى مشروع الدستور المقترح لا يتمشى مع عادات وتقاليد أمتنا » ٠

وكان من المتوقع أن يؤجل السـلطان عبد الحميد اعلان

الدستور برمته لولا ان الحوادث الخارجية تطورت بسرعة • فلقد استؤنفت الحرب فى البلقان بعد انتهاء الهدنة التى فرضتها الدول الاوربية • وفى ٣١ أكتوبر ١٨٧٦ قدمت روسيا انذارا للباب العالى تطلب وقف الحرب خلال ثمان وأربعين ساعة واعلان هدنة مدتها شهرين • ولما كان الباب العالى غير مستعد لمجابهة روسيا فقد أعلن قبوله لمطالبها فى اليوم التالى • ولما كانت بريطانيا لا تريد أن تترك زمام المبادرة لروسيا فقد أرسل وزير خارجيتها لورد دربى منشورا للدول الأخرى وللباب العالى يطلب عقد مؤتمر لوضع حل حاسم للمسألة الشرقية • وقبلت الدول ومعها الباب العالى ذلك • واختيرت الاستانة مقرا للاجتماع • ولكن روسيا أصرت أن يجتمع مندوبو الدول أولا بدون حضور ممثل الباب العالى • وكان معنى ذلك ان الدول ستجتمع لتقرر ما تريد فرضه على الباب العالى لقبوله • ولم يكن أمام الباب العالى خيار فعليه أن يقبل ما تأمره به الدول • وكان رأى مدحت أنه بمبادرة السلطان باعلان الدستور وعزمه على الاصلاح يستطيع أن يحول بين الدول الأوربية وبين التدخل •

ومن هنا فقط ولسبب ذلك فحسب أعلن عبد الحميد موافقته على اعلان أول دستور للبلاد وأصدر فرمانا رسميا بذلك فى ٢٣ ديسمبر ١٨٧٦ •

ويسمى الأتراك العثمانيون الدستور باسم القانون الاساسى كما اتفق على تسميته العهد الدستورى بعهد المشروطية الاولى تمييزا له عن المشروطية الثانية التى قررت سنة ١٩٠٨ اعادة العمل بالدستور حين أجبر السلطان عبد الحميد على ذلك من طرف جماعة الاتحاد والترقى •

وفرح الناس فى كل فج باعلان الدستور سنة ١٨٧٦ واعتقدوا أن عهدا مشرقا وضاء قد أشرق على الدولة العثمانية • وان

السلطان لم تصبح سلطته مطلقة بل مشروطة ومقيدة . وكان أهم ما تضمنه هذا الدستور (١) أنه غير من شكل الدولة فبعد أن كانت كل السلطات مركزة في يد السلطان كلمته هي القانون ليس لرعاياه من حق الاطاعة الا ما يأمر به السلطان أصبحت الدولة العثمانية بموجب هذا الدستور دولة ذات نظام دستوري برلماني وأصبح لرعايا الدولة العثمانية حق التمتع بالحريات والاشتراك في تشريع القوانين . فقد قرر الدستور وجود هيئة برلمانية تتكون من مجلس للشيوخ يسمى مجلس الاعيان ومجلس من النواب يسمى مجلس المبعوثان ، وأعطى لأعضائهما على غرار المجالس النيابية في أوربا بعض الامتيازات ، من ذلك مثلا لا يحق القبض عليهم الا بأوامر من مجلسيهما .

وكان أهم ما قرره الدستور الذي صدر سنة ١٨٧٦ ان الدولة العثمانية التي ظلت على مدى ثلاثة قرون تعترف برعاياها على أساس الجنس والدين واللغة أصبحت بموجب هذا الدستور تعترف ان الكل بدون تمييز بينهم مواطنون عثمانيون متساوون أمام القانون ولا يصح اتخاذ الدين وسيلة للتمييز بينهم .

وبرغم أن السلطان عبد الحميد أصر قبل اعلان الدستور ان تظل له كثير من السلطات فبقى من حقه أن ينفى من يشاء بحجة خطره على الامن ، واضطر مدحت للموافقة على ذلك اذ أن عبدالحميد هدد برفض الدستور برمته ما لم يوافق على ذلك . وكان من العجيب ان مدحت كان أول ضحية تعرضت للنفى بموجب هذه المادة بعد ان انقلب عبد الحميد ونكث على عقبيه وعطل الدستور

---

(١) لمن يشاء التفصيل فى هذه الناحية يمكن الرجوع الى كتاب: Devereux The First Ottoman Constitutional period, pp. 61-79.
وكذلك كتاب انطاكى عبد المسيح : نيل الامانى فى الدستور العثمانى .

وكان تخلص عبد الحميد من مدحت بداية للتخلص من النظـــام الدستورى بأسره • فكان أن أصدر قرارا فى فبراير من العام التالى (١٨٧٧) بنفى مدحت وذلك قبل اجتماع البرلمان الذى كان لمدحت الفضل الأول فى وجوده • ولم يلبث أن أصدر فرمانا فى فبراير من العام التالى (١٨٧٨) بتأجيل اجتماع مجلس النواب (المبعوثان) وكانت تركيا فى ذلك الحين قد دخلت الحرب مع روسيا وخسرت خسارة فادحة وأصبحت القوات الروسية قريبة من عاصمة الدولة نفســـها الأمر الذى أدى الى عقـد مؤتمر برلين ســـنة ١٨٧٨ بعـــد أن هـددت انجلترا بالتصـــدى للغزو الروسى للدولة العثمانية • طالب بعض النواب بالتحقيق فى أسباب الهـــزيمة ومحاكمة المسئولين • وخشى عبد الحميد ان يكون هو أحد ضحايا نظام قبله على مضض • فبادر الى تعطيل الدستور وان لم يلغـه رسميا • فلقد استطاع عبد الحميد الذى كان من أدهى السلاطين أن يبدو بذلك وكأنه الحريص على الدستور لكن الظروف الخارجية هى التى تحول دون العمل به • واستطاع بهذه الوسيلة أن يتخلص من النظام الدستورى مدة ثلاثين عاما متصلة تقريبا حتى أجبرته ثورة سنة ١٩٠٨ على اعادة العمل به •

وعادت الدولة العثمانية الى نظام استبدادى فريد فى نوعه وهو النظـام الذى تصـدى الكواكبى لمحاربته والتنديد به وأوقف قلمه وبيانه دفاعا عن الحرية التى أهدرت على عهد هذا السلطان واذا كانت الدولة العثمانية قد عادت الى نظام الحكم المطلق ،الا أن هذا النظام لم يبق على حالته السابقة بل أخذ يشتد ويقوى شيئا فشيئا حتى تحول آخر الأمر الى حكم استبدادى فظيع لم تشـهد الدولة العثمانية له مثيلا من قبل • وفرض السلطان عبدالحميد نظاما كبيرا ودقيقا من التجسس والرقابة على الصحف والمطبوعات وتفنن الجواسيس فى عملهم وكثر عددهم وكانوا يعرفون باســم

الخفية لأنهم يتجسسون على الناس خفية (١) · وكان تقارير هؤلاء الجواسيس كافية لاعتقال الكثير من الاشخاص والزج بهم فى السجون ليشهدوا فيها أشد أنواع التعذيب وكثيرا ما كان يتبع ذلك النفي خارج البلاد · واهتم السلطان عبد الحميد بالصحافة فكممها وجعل كل كلمة تقال تنشر أو تكتب تعرض على الرقيب الدائم وكذلك كان الحال بالنسبة للكتب وكل أنواع المطبوعات ، فكان يتحتم على كل مؤلف أو كاتب أن يرسل مسودات كتابه أو مقالته الى لجنة تسمى لجنة تدقيق المؤلفات ليحصل منها على رخصة خطية لما يريد طبعه · وكثيرا ما كانت أعمال هذه اللجنة ومراجعتها للكتاب أو المقال يستغرق شهورا عدة ان لم تناهز السنة الكاملة وكان المراقبون والمدققون يغالون فى البحث والتدقيق مغالاة شديدة لأنهم كانوا يحسبون حسابا لأبعد الاحتمالات وأغرب التأويلات وكثيرا ما عطلت صحف وصودرت كتب فى هذه الفترة (٢) كما فسد جهاز الدولة فلم تعد الاستقامة أو الكفاءة سبيلا الى الترقي بل أصبح التملق والنفاق هو السبيل الى الوصول الى كراسى الحكم وساءت حالة الدولة المالية فازدادت نفقات السلطان وزادت مصروفاته على شبكة الجاسوسية ، كل هذا مع زيادة عدد رجال القصر ومرافقي السلطان · وهكذا أدى الاستبداد الحميدى الى استشراء الفساد فى جميع الامور والميادين ·

ومضت الدولة العثمانية فى حالة سيئة من التدهور والانحطاط ففقدت الكثير من ممتلكاتها فاحتلت فرنسا تونس (١٨٨١) وخضعت مصر للاحتلال البريطانى (١٨٨٢) وحاولت الدولة العثمانية اخضاع اليمن والقضاء على ثوراتها فعجزت كما انحسر الحكم العثمانى فى الخليج العربى عن منطقة الاحساء

(١) ساطع الحصرى البلاد العربية والدولة العثمانية ص ١٠٠

(٢) المرجع السابق ص ١٠١

وتنازع آل سعود وآل شمر في امارتي نجد وشمر السلطة وأخذا يديران حروبهما وشئونهما دون الالتفات الى ما كان يدعيه الترك من حق السيادة (١) .

ولقد أشار الكواكبي لهذه الحالة السيئة التي بلغتها الدولة العثمانية على عهد السلطان عبد الحميد في كتابه أم القرى فقال انه في العشرين سنة الأخيرة (السابقة على تأليفه كتابه) وهي السنوات التي حكم فيها عبد الحميد البلاد » « ضاع ثلثا المملكة وضرب الثلث الباقي وأشرف على الضياع لفقد لرجال وصرف حضرة السلطان قوة سلطنته كلها في سبيل حفظ ذاته الشريفة وفي سبيل الاصرار على سياسة الانفراد » (٢) .

حاول عبد الحميد أن يسخر قوة الدين لغاياته السياسية وأراد أن يكسب المسلمين كقوة تسانده أمام الخطر الاوربي ،ولهذا نجده كلما اشتدت الاخطار المحيقة بالدولة العثمانية لجأ عبدالحميد الى تأكيد حقوقه كخليفة للمسلمين . فقد كان يرمي الى تدعيم سلطته الزمنية في الدولة العثمانية بالتأكيد على حقوقه كخليفة للمسلمين . ومن المعروف ان السلاطين العثمانيين أضفوا على أنفسهم لقب خلفاء المسلمين منذ تم فتح مصر على يد العثمانيين ورددوا أن الخليفة المتوكل على الله آخر الخلفاء العباسيين في مصر تنازل عن الخلافة للسلطان سليم الثاني ، وبهذه الصورة انتقلت الخلافة الاسلامية من العباسيين الى العثمانيين وبرغم تواتر هذا القول فان الأبحاث التاريخية لا تؤيدها ولا تدعمها كتابات المؤرخين المعاصرين للفتح العثماني لمصر (٣) .

---

(١) جورج انطونيوس : يقظة العرب (مترجم). ص ٦٧

(٢) الكواكبي : أم القرى ص ١٤٢ طبعة المكتبة التجارية سنة ١٩٣١

(٣) ارجع لتفصيل هذه النقطة في ساطع الحصري : البلاد العربية والدولة =

ومن المعلوم أنه بقدر استفادة العثمانيين من توليهم منصب الخلافة الاسلامي فى اخضاع الشعوب العربية لهم واستسلام العرب لهم ، الأمر الذى أخر كثيرا باليقظة العربية ، فان السلطان العثماني أصبح مع ضعف الدولة العثمانية وترديها فى هاوية الضعف والانحطاط ـ فى حاجة الى توكيد صفته كخليفة للمسلمين . وكان السلطان عبد الحميد هو أكثر السلاطين العثمانيين اهتماما بذلك وحرصا عليه . فقد كانت خطته ترمى الى اعادة الخلافة الى مكانتها اللائقة بها واقناع الرأى العام الاسلامي بأنها والسلطنة شيء واحد فاذا ما استعادت الخلافة اعتبارها بهذا الشكل عمد الى تسخيرها لتكون دعامة ثم قوة دافعة لتحقيق أغراضه السياسية (١) .

ومن ثم رسم عبد الحميد لنفسه سياستين داخلية وأخرى خارجية ، فقد سعى من داخل الدولة العثمانية الى تحقيق مركز السلطان فى أذهان رعاياه المسلمين بضربه على الوتر الحساس وهو الدين وأصر على أن سلطته الزمنية تستند الى سلطته الدينية التى تسبغ عليه رداء قدسيا . فهو ظل الله على الارض وأمير المؤمنين وخادم الحرمين الشريفين وحامى الدين الاسلامى .. الى غير ذلك من الالقاب التى أراد بها أن يعطى بها نفسه هالة كبيرة .

وقد حمل الكواكبى فى عنف على هذه الالقاب التى أضفاها السلاطين العثمانيون على أنفسهم فهو يقول :

« وهؤلاء المتشاوشون يغرون حضرة السلطان على هذه الدعاوى بما يهرفون به عليه وبما يؤلفونه هم وأعوانهم من الكتب والرسائل

= العثمانية ص ٤٣ وفيه يورد كثيرا من الاسانيد لهذه النقطة منها عدم اشارة المؤرخ ابن اياس لها لا فى صغيرة ولا فى كبيرة برغم سرده للفتح العثمانى لمصر بالتفصيل .

(١) انطونيوس : يقظة العرب ص ٦٧

التي يعزون بعضها لأنفسهم وبعضها لغيرهم من المنافقين أو لأسماء يســـمونها أو كتب يختلقونها فيجعلون تارة آل عثـــمان العظام يتصلون نسبا بعثمان بن عفان رضى الله عنه وأخرى يرفعون نسبهم الى أغلى قريش ويعطونهم حق الخلافة مرة بالفراغة من العباسيين وأخرى بالاستحقــاق والوراثة وآونة بالعهد وأخرى بالبيعة العامة وحينا بخدمة الحرمين الشريفين ووقتا بحفظ المخلفات النبوية وكأن هؤلاء الغشاشين يريدون بهذه الدسائس أن يجعلوا حضرة السلطان نظيرهم دعى نسب كاذب كدعواهم لأنفسهم بالسيادة ومتسم مقام موهوم كدعواهم الولاية والقبطانية فى أنفسهم وآبائهم وأجدادهم فيحشون فى تلك المؤلفات انسابا انتحلوها لأنفسهم مقرونة بنسب حضرة السلطان ويستطردون لحكايات كرامات لأجدادهم ملفقـــة مخترعة لا يقدمها لهم أحد من المسلمين يدسونها بين حكايات وقائع الخلفاء السلاطين .

« ومن المعلوم عند أهل الوقوف أن التلقب بالخلافة والامامة الكبرى أو امارة المؤمنين فى آل عثمان العظام حدث فى عهد المرحوم السلطان محمود حيث صار بعض وزرائه يخاطبونه بذلك أحيانا تفننا فى الاجلال وغلوا فى التعظم ، ثم توسع استعمال هذه الألقاب في عهـــد ابنيه وحفيديه الى أن بلغ ما بلغه اليـــوم بسعى أولئك الغشاشين الذين يدفعون ويقودون حضرة السلطان الحـــالى (يقصد الكواكبى السلطان عبد الحميد) للتنازل عن حقوق راســـخة سلطانية لأجل عنوان خلافة وهمية مقيدة فى وضعها بشرائط ثقيلة لا تلائم أحوال الملك ومعرضة بطبعهـــا للقلقلة والانتزاع والخطر العظيم .. » (١)

---

(١) الكواكبى : أم القرى صفحات ٢٠٥ ، ٢٠٦ ط المكتبة التجارية سنة ١٩٣١

كان السلطان عبد الحميد يريد بما يضفيه على نفسه من مهابة دينية أن يحد مما تعرضت له الدولة العثمانية على عهده فأصبحت مطمح الطامعين ، كما كان يرمي من وراء الدور الذى اتخذه لنفسه وهو دور الخليفة الورع ان يكسب ولاء المسلمين فى داخل مملكته وخارجها خاصة ملايين المسلمين المقيمين فى مناطق تابعة لبريطانيا وفرنسا وروسيا وهو أمر لو حققه يزيد مركزه قوة فى داخل دولته وفى الميدان الدولى ٠

وأظهر عبد الحميد فى تنفيذ مرماه مرونة لا ينضب معينها وفهما دقيقا لما تتطلب هذه السياسة فحرص على أن يظهر أمام الناس بمظهر التقى الورع وأحاط نفسه برهط من الفقهاء ورجال الدين الذين كان بعضهم يتمتع بشهرة واسعة ونفوذ كبير فعمد الى تسخيرهم للدعاية له بل انه أنشأ معهدا دينيا لتخريج الدعاة (١) ٠ وما لبث أن بعث بجماعات كثيرة منهم الى أقصى أنحاء العالم الاسلامى ليبثوا الرعاية والدعوة بالولاء له كخليفة للمسلمين ٠ وأخذ هؤلاء المتملقون له يضفون عليه من ألقاب القداسة والتبجيل ما لم يوصف بها غيره فهو الخاقان الاعظم وحامى الحرمين وسلطان البرين والبحرين وظل الله فى أرضه الى غير ذلك من الالقاب ٠ وبلغ اهتمام السلطان عبد الحميد بذلك انه أراد استغلال موسم الحج للدعوة لنفسه وشرع يبذل المساعدات المالية بسخاء كبير للمدارس الدينية فى داخل المملكة وخارجها ، كما سخر الصحافة بدورها فأوجد المجلات التى أخذت على عاتقها السير بالدعوة بتوجيه منه ٠

وكانت أهم العناصر التى استهدف عبد الحميد كسبها الى جانبه هم العرب الخاضعين لحكمه ذلك أن جمهرة الترك المؤلفة أكثريتها من فلاحى الاناضول كانت بطبيعتها موالية للعرش بينما

---

(١) انطونيوس : يقظة العرب ص ٦٨

كان العرب وحب الحرية متأصل فى نفوسهم أقل خضوعا • ومما زاد فى خطورة الامر فى نظره أنهم أخذوا يظهـــــرون من التصرفات ما يشير الى تفتح الوعى القومى فى نفوسهم • ولهذا بذل عبدالحميد جهودا خاصة لكسب ودهم فشكل فرقة ممتازة من الجند العـــرب ضمها الى حرمه الخاص وبذل المبالغ الطائلة فى زخرفة المساجد فى مكة والمدينة وبيت المقدس • وفى الوقت نفسه كان عبدالحميد يلجأ الى الوسائل العنيفة كلما وجد ان سياسة الارضاء لا تؤتى ثمرتها المطلوبة • فقد أوفد عددا من الرسل المختارين ليجوبوا العالم العربى فى ثياب الوعاظ بينما كانت مهمتهم الحقيقية بذر بذور الشـــقاق أو تشـــجيعه بين كبار أمراء العرب واذكاء نار الخلافات القبلية أو المذهبية • كما سعى الى دعوة عـــــدد منهم للاقامة فى الاستانة ليكونوا تحت مراقبته ، ومن هـــؤلاء الشريف الحســـين شريف مكة • فقد كانت التقارير التى يتلقاها عبد الحميـــد من جواسيسه تشير الى نشاط كل أمير أو حاكم وميوله ودرجة ولائه للسلطان • وجاءت التقارير التى تلقاها عبد الحميد عن الحسين تنبىء بأنه شاب عنيد وأنه لا يصرح بما يجول فى فكره الا نادرا كما أنه (الشريف حسين) ذو نزعة استقلالية • ولذلك استدعاه السلطان عبد الحميد هو وأسرته الى الاستانة فوصلها عام ١٨٩٣ وهو لا يزال فى أوج شبابه • ورافق الشريف حسين أولاده الثلاثـــة على وعبد الله وفيصل وحرم عبد الحميد عليهم مغادرة الاســـتانة وظلوا كذلك معتقلين أكثر من خمس عشرة سنة حتى كانت الثورة التى أطاحت بعبد الحميد سنة ١٩٠٩ فأعادت تعيين الشريف حسين شريفا لمكة •

ومضى عبد الحميد فى سياسته التى ترمى الى احكام القبض على العرب فاستعان ببعض ذوى النفوس الضعيفة فقربهم اليه ، ومن هؤلاء عزت باشا العابد وهو عربى من بلاد الشام استطاع أن ينال حظوة كبرى لدى السلطان عبد الحميد عن طريق الكيد والدس

وقضى في خدمته ثلاثة عشر عاما ٠ ولم تنته حظوته الا بسقوط عبد الحميد ٠ فلقد استطاع العابد أن يصل الى وظيفة سكرتير ثان وان يصبح من خلال هذه الوظيفة أقوى موظف فى الدولة العثمانية جاها ونفوذا ٠ وكان السلطان وهو يقرب العابد اليه يبغى أن يستغل دهاءه ومكره فى ابلاغه بكل التقارير والمعلومات عن نشاط بعض العناصر العربية المتحررة والتى أخذت مع استبداد عبد الحميد تزداد يوما بعد آخر ٠

ويرى بعض المؤرخين ان فكرة مد خط حديد الحجاز كانت من بنات أفكار العابد باشا فقد أشار على السلطان عبد الحميد بمد السكة الحديد من دمشق الى مكة المكرمة ٠ وكان الهدف كما يبدو أمام أعين العرب والمسلمين هو ظهور السلطان عبد الحميد بمظهر السلطان المتدين الحريص على تمكين المسلمين من أداء شعائر الحج ويستندون فى ذلك الى أن السلطان عبد الحميد أسند اليه رئاسة اللجنة التى وجهت نداء الى العالم الاسلامى توضح الدوافع الدينية « الحميدة » التى أوحت لعبد الحميد بصفته خليفة المسلمين لمد الخط الحديدى ٠ وطلبت اللجنة من المسلمين الاكتتاب لتغطية نفقاته ٠ ولاقى النداء قبولا حسنا وفى الوقت نفسه فرضت ضريبة جديدة فى جميع أنحاء المملكة ٠ وبدأ تشييد الخط على يد مهندسين ألمان سنة ١٩٠٠ ووصل الخط الى المدينة سنة ١٩٠٨ ولم يمتد بعد ذلك بسبب خلع السلطان عبد الحميد ورفض الشريف حسين مد الخط من المدينة الى مكة المكرمة للخلاف الذى بدأ بينه وبين جماعة الاتحاد والترقى الحاكمة ٠

ولم يكن ما أقدم عليه السلطان عبد الحميد من مد خط حديد الحجاز عن ايمان واقتناع بقدر ما كان الغرض منه كسب ود الشعوب الاسلامية عامة والولايات العربية التابعة له بصفة خاصة ٠

لكن كان هناك من أحرار العرب من كشف كل الاعيب السلطان عبد الحميد وحيله ودهائه ورأى سياسته منكرا يجب التصدى له بالقول والعمل وكان على رأس هؤلاء كاتبنا الكبير عبد الرحمن الكواكبى .

الفصل الثانى

موطن الكواكبى ونشأته الأولى

ينبغى لمن يؤرخ لموطن الكواكبى أن يتناول بالدراسة سوريا بصفة عامة وحلب بصفة خاصة تحت حكم العثمانيين فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ٠

من المعروف أن الحكم المصرى للشام (خلال عهد محمد على) قد أحدث تغييرات جوهرية واصلاحات جذرية مهدت السبيل كى تصبح هذه البلاد الارض الصالحة والبيئة المناسبة لبداية الحركة العربية فى عصرها الحديث ٠ ورغم قصر العهد المصرى بالنسبة للعهد العثمانى الطويل فى بلاد الشام فقد أرسيت فيه قواعد جديدة للحكم لم تكن معروفة من قبل ، اذ أنهى ابراهيم باشا عهد الحكم السطحى ، وبدأت الدولة التدخل فى شئون التعليم والقضاء والمواصلات والاحتساب والصحة العامة ٠ كما ازدادت الدولة دقة وحزما فى تنفيذ قراراتها وسيطرت بشكل فعال على التجارة لا سيما التجارة الخارجية وتدخلت فى تنظيم الزراعة والصناعة وتوجيهها فى خدمة أغراض الدولة ٠ ولم يعد التجنيد وجباية الاموال أمورا شكلية يمكن التهرب منها بالمقاومة أو بشىء من الرشوة ٠ وأحس الشعب كله أثر هذه الاصلاحات لا سيما المسيحيين منهم ٠ فلقد ألغى ابراهيم القيود المفروضة على أزيائهم المميزة وأباح للافرنج دخول مدينة دمشق راكبين ، وسمح لهم بتأسيس قنصليات فيها ورفع أعلام تحمل شارة الصليب ٠ كذلك اعتمد على كثير من المسيحيين أمثال بطرس كرامه وحنا

البحرى وعهد اليهم بادخال تنظيمات أفرنجيـــة وترتيب مجالس ملكية ومدنية وعسكرية ونظامات حديثة (١) ٠

وساوى ابراهيم باشا بين جميع أفراد الشعب أمام القانون لا فرق فى ذلك بين مسيحى أو مسلم أو يهودى ولم تكن هـــذه المساواة موجودة من قبل ومن أهم ما أدخله ابراهيم باشا الى جانب العمل على توطيد سلطة الحكم المركزى والقضاء على سلطة الافراد والرؤساء الاقطاعيين أنه أخذ بمبدأ الشورى فى حكم البلاد فألف فى كل مدينة يزيد عدد سكانها على عشرين ألف نســـمة مجلس يسمى (ديوان المشورة) يتراوح عدد أعضائه بين ١٢ ، ٢١ عضوا ينتخبون من بين نبهاء (أعيان) البلاد وتجارها ٠ ومما لا ريب فيه أن هدف هذه المجالس كان خدمة الحكومة المركزية وتيسير مهمتهـا ومعاونتها فى تحصيل الاموال المطلوبة (الميرى) ، لكنها كانت بلا شك مقدمة على طريق تعويد الاهالى أسلوب الحكم الشورى (٢)٠

وكان تعيين ابراهيم باشا لبعض السوريين فى هذه المناصب الكبيرة دليلا على حد اعتراف الكثير من المؤرخين والأوربيين منهم بوجه خاص على رغبته فى اسناد كبار المناصب الى ابناء البلاد وهو ما لم يكن مألوفا فى عهد الادارة التركية ٠ فكتب لويس بلان فى كتابه (تاريخ عشر سنوات) ! يقول : اذا اردنا ان نعرف ما افادته سوريا من انتقالها من الحكم التركى الى حكم المصريين فما علينا الا أن نلقى نظرة على سهول انطاكية التى اكتست بأشجار الزيتون وضواحى بيروت التى كثرت فيها الكروم والنشــاط الذى انبعث فى حلب ودمشق ٠ صحيح ان محمد على أظهر قسوة فى حكم سوريا ، ولكن فى ظل هذا الاستبداد العـــارض الذى كان ضرورة ولزاما حيث

---

(١) غرايبه عبد الكريم سورية فى القرن ١٩ ص ٥٨
(٢) الرافعى : عصر محمد على ص ٢٩٩

سادت الفوضى فى تلك البلاد ، ألفت سوريا النظام العمران . » (١) .

فأكد بعض المؤرخين والرحالة الذين زاروا سورية فى عهد الحكم المصرى أنه اذا بقيت أعمال الأمن وبقى الأمن الذى بسطه فان حالة البلاد ستتطور تطورا كبيرا . واعترف السوريون أنفسهم والادباء والمؤرخون منهم بوجه خاص بذلك . فقد كتب سليمان أبو عز الدين أحد أدباء سوريا فى كتابه «ابراهيم باشا فى سورية» يقول : لابراهيم باشا فضل خاص فى السنتين الأولى بعد الفتح فى ضبط الاحكام وشدة مراقبة الحكام واجراء العدل بين الاهلين . وكان شديد الوطأة على المستخدمين الذين يحيدون عن السبيل القويم ، فعاقب كثيرا منهم بالطرد والضرب والحبس للاعتداء على أهل البلاد أو عدم النزاهة وغير ذلك مما يخرج عن جادة الاستقامة فلو استمرت حكومة محمد على فى سوريا ناهجة هذا المنهج القويم لملكت قلوب الأهلين .

والأمر الذى لا شك فيه ان وجود الحكم المصرى فى سورية قد مهد السبيل لنهضة علمية أدبية فقد سهل الطريق لقدوم الافرنج والمبشرين الذين بدأوا فى انشاء المدارس . فلقد فتحت سياسة التسامح الدينى التى اتبعها ابراهيم باشا فى حكمه لبلاد الشام الباب أمام بعثات التبشير المسيحية الغربية وخاصة البعثات البروتستانتية الأمريكية والكاثوليكية الفرنسية . ومما لا شك فيه ان جهود هؤلاء المبشرين فى فتح المدارس فى بلاد الشام كانت أحد الأسباب الهامة التى جعلت بلاد الشام تشهد قبل غيرها من البلاد يقظة عربية كانت بداية لحركة بعث كبيرة فى العصر الحديث على نحو ما سنتناوله عند حديثنا عن دور الكواكبى فى اليقظة العربية الحديثة .

---

(١) الرافعى : عصر محمد على ص ٣٠٠ .

ولقد أشاد الكواكبي نفسه بالنهضة التي أحدثها محمد علي وابنه ابراهيم وذلك في كتابه أم القرى فهو يقول « ... حتى ان النهضة العثمانية بكل فروعها مسبوقة في مصر ومقتبسة عنها بل كما يعلم العارفون انما تقدمت الدولة العليـــة العثمانيـة ببعض خطوات في ميدان المدنية والعمران مدفوعة بأيدي المرحومين محمد علي وابراهيم ... » (١) .

ثم كان أن انتهى الحكم المصري للشام بموجب معاهدة لندن يوليو ١٨٤٠ حيث أجبر محمد علي على الانســحاب من سوريا والحجاز ونجد واليمن وســواحل الخليج العربي وتقلصت امبراطوريته الى حدود مصر والسودان .

وراود الأمل أولئك الذين ساءتهم اصـــلاحات ابراهيم في سوريا ان الحكم العثماني سيكون كما عهدوه من قبل رخوا سهلا فاسدا ضعيفا غير محكم قبضته على المحكومين . لكن آمال هؤلاء خابت بعد أن أدخل العثمانيون تنظيمات تشبه التنظيمات المصرية دون أن يقضوا على القـواعد القـديمة خالقين بذلك ازدواجا في النظم . وحافظت الدولة العثمانية على التقسيمات والنظم الادارية التي كانت قائمة من قبل في سورية . فقد بقيت سورية مقسمة الى ولايتين رئيسيتين هما ولاية حلب ودمشق وظلت ولاية صيدا قائمة في أول الأمر ولكن جعلت بيروت عاصمة لها (٢) .

ثم نقصر الحديث على عهد العثمانيين ذلك أنها كانت موطن الكواكبي المكان الذي نشأ فيه وعاش زهرة أيامه به .

كانت ولاية حلب تمتد امتدادا كبيرا في المناطق التي أصبحت حاليا تابعة للجمهورية التركية . فقد كانت تتكون من ألوية ثلاثة

(١) الكواكبي : أم القرى ص ١٨٩ طبعة المكتبة التجارية سنة ١٩٣١ .

(٢) غرايبه : سورية في القرن ١٩ ص ٥٨ وما بعدها .

لم يبق منها تابعا لسورية الا أجزاء من لواء واحـــد . وحرصت الدولة العثمانية ألا يستقر على حكم حلب أحـد من الولاة لفترة طويلة فلقد حكمها ثلاثون واليا فى مدة ثلاثين سنة وذلك منـذ جلاء ابراهيم باشا بقواته عنها الى اعلان الدستور الأول على عهـد السلطان عبد الحميد أى من سنة ١٨٤٠ ـ سنة ١٨٧٦ . بل بلغت مدة حكم بعضهم لحلب ستة أيام. وكان من شأن ذلك عدم الاستقرار وعدم حرص أحدهم على رفاهية الولاية أو العمل على ادخال أى نوع من الاصلاح فيها . وسكن مدينة حلب فى هـذا العهد حوالى مائة ألف نسمة خمسهم من المسيحيين وثمانية آلف منهم من اليهود . كما عاش فيها عدد كبير من الافرنج ولعبت الطوائف المسـيحية واليهودية دورا بارزا فى حياة حلب أكثر مما لعبوه فى دمشق . فقد سيطر يهودوها على عمليات الصرافة وأكثر التجارة الخارجية والصناعات . وكان أكثر القناصل منهم لا سيما من عائلة مركوبولى الذين كان منهم قناصـل اسبانيا ودويلات ايطاليا . وكثـيرا ما استثار هؤلاء اليهود المسلمين والمسيحيين لسيطرتهم على أمور القوافل التجارية وحملوهم على الاستراحة يوم السبت وتلاعبـوا بأسعار النقد .

وانقسم المسيحيون فى حلب الى عـدة طوائف كل واحدة برعاية أحد القناصل ، وقام القنصل الفـرنسى برعاية الموارنة والروم الكاثوليك كما أقام الانجليز علاقات قوية مع الارثوذكس وتزوجوا منهم ودفنوا موتاهم فى مقابرهم بل أقام عدد من الانجليز فى حلب كعائلة باركر التى تزوج عدد من أفرادها من فتيـات أرثوذكسيات . لكن النفوذ البريطانى لدى الانجليز أخـذ يتقلص نوعا ما بعد أن برزت روسيا حامية للأرثوذكس . وأما مسلمو حلب فقد اشتهر عنهم عدم التعصب وحسن معاملتهم للغير مما جعـل مدينتهم مركزا لنشاط الاجانب المسيحيين طوال العهد العثمانى . وغدت مدينتهم ملجأ المضطهدين من المسـيحيين حتى فاق عددهم

فيما بعد عدد سكان البلد الاصليين من المسلمين • ولكن أهـــل حلب الرحماء باخـــوانهم المسيحيين كانوا أشداء مع الســـلطات العثمانية فتحدوها أكثر من مرة • ومما ينبغي ذكره ان عام ١٨٥٠ شهد ثورة عارمة قام بها أهل حلب ضد السلطات العثمانية• وكان متسلم حلب واسمه عبد الله البابنسي الانكشاري الاصل قد شغل هذه الوظيفة ابان حكم ابراهيم باشـــا وبقي في منصبه خـــلال السنوات العشر الاولى من الفترة التي تلت انتهـــاء الحكم المصري لبلاد الشام • وكان ينافس عبد الله فيمنصبه يوسف باشا شريف زاده (من الأشراف) • وكان عبد الله ومنافسه من الشخصـــيات التي انتزمت بجمع الاموال الاميرية دون أن يدفعـــا كل ما جمعاه لخزانة الدولة وتراكمت عليهما أموال كثيرة فطالبتهما الدولة بالدفع وهدد الوالي بمصادرة أملاكهما • ورأى الخصمان أن من مصلحتهما الاتفاق واثارة فتنة تجبر الوالي على تناسي الاموال المتأخرة وتدفعه الى الاعتماد عليهما وعلى أعوانهما لاخماد الفتنة • فأشاعوا بواسطة عملائهما أن الدولة عازمة على اتخاذ عدد من الاجراءات الجديدة من بينها تجنيد الشباب • وأدى ذلك الى ثورة على الدولة وهاجم بعض عامة الناس مقر الثكنة العسكرية • وعبثا حاول الوالي اخماد الفتنة وسارت الجموع خلال الليل الى بيوت الاعيان للانتقام منهم لأنهم لم يحاولوا حماية الشعب من ضرائب الحكومة • ونتيجـة لذلك فر الأعيان ولجأوا الى الثكنة العسكرية ، ثم تلا ذلك أن قصد النـــاس الحي المسيحي ليأخذوا من المســـيحيين مالا يشترون به أســـلحة يجبرون بواسطتها الدولة على الغاء الضريبة والجندية (١) •

ولم يكن هدف ثوار حلب الاعتداء على المسيحيين ولكن زعماء الثورة اعتقدوا أن من صالح المسيحيين دفع هـــذه الاموال شأنهم

---

(١) كامل الغزي : نهر الذهب في تاريخ حلب ج ٣ ص ٣٦٦ الفتنة المعروفة بقومة حلب •

شأن المسلمين من أهالي حلب ، ولكن فرار بطريرك الروم الكاثوليك من وجه الثوار والتجائه الى القناصل أثار الثوار ودفع ببعضهم الى الحي المسيحي يخربون . ثم كان أن تبادل الثوار الرسل مع الوالي الذي تظاهر بالاستجابة لمطالبهم وطلب ارسال رسل للمفاوضة . ولما ان جاءته الرسل حتى اعتقلهم في القلعة فأعلنت الثورة مرة ثانية وأطلق الثوار النار على القلعة فرد الجند باطلاق النار على الثوار الذين لم يستكينوا وجاءت جموع الأعراب الى حلب لتأييد الثورة . لكن نفاد الذخيرة من يد الثوار مكن الجند من السيطرة على الموقف وقبض على زعماء الثورة ونفي عدد منهم .

وهذا يدل على أن أهل حلب اشتهروا بعدم الرضوخ والاستكانة للضيم والرضا بالامر الواقع وعدم قبولهم لمساوىء الحكم العثماني ، فقد كانوا قوما أباة ثائرين لا يرضون بالاستبداد والتسلط الذي اشتهر به العثمانيون .

وكان من بين أبناء حلب الذي بز غيره في الثورة على الضيم وعدم الرضا والمجاهرة بعدائه صاحب هذه الترجمة المرحوم عبد الرحمن الكواكبي .

نسبه :

يري المؤرخون ان الكواكبي ينتهي نسبه الى علي بن أبي طالب رضي الله عنه ويذكرون في شجرة هذا النسب علمين من اردبيل (من أشهر مدن أذربيجان) هما صفي الدين الأردبيلي وصدر الدين الاردبيلي ويقولون ان من أحفاد الشيخ صفي الدين الاردبيلي رجلا يسمى (علي سياه بوش) خرج الى بلاد الروم ولما وصل الى حلب بقي فيها وتزوج من حلبية ثم رجع الى بلاده ومن ذريتـه كان آل الكواكبي .

ويذكر المؤرخون كذلك ان نسب هذه الأسرة من جهة الأم يتصل بمحمد الباقر بن علي زين العابدين بن الامام الشهيد الحسين رضي الله عنه ..

ويقول المؤرخون ان أول من انتقل من هذه الأسرة الى حلب واستقر بها هو محمد أبو يحيى الكواكبي وأنه كان حدادا يعمل المسامير (وهي ما تسمى في المعاجم وما يعرفها بعض الناس باسم الكواكب) ، ومن هنا عرف باسم الكواكبي واشتهر بتدينه وتقواه حتى كان الناس في حلب تقبل عليه تلتمس منه الدعاء لها بقضاء الحاجات ! ودفن في المسجد الذي أصبح يعرف بجامع الكواكبي وهو المسجد الذي ضم رفات آل الكواكبي من بعده .

أما أبوه فهو أحمد بهائي بن محمد بن مسعود الكواكبي اشتهر عنه غزارة علمه وسعة اطلاعه فقد تلقى تعليمه في الجامع الأموي على شيوخ العصر في حلب في ذلك الحين حتى أصبح متفقها في دينه وصار من أجل ذلك أعظم علماء حلب في العلوم الشرعية والفقهية وكان أدق علماء عصره في حلب في مسائل الفتوى وباقي العلوم الدينية .. كان لا يقصده أحد في حاجة إلا قضاها له محبا للصدقات الخفية كريم الطبع متفضلا على الاخوان والخلان ، مع أنه ربما مضى عليه الشهر وهو خال من النقود ، وقد استنيب في قضاء حلب مدة بعد الحاح الوالي عليه ، ففرح به الناس وحسم أكثر دعاواهم صلحا برضا الطرفين . »

وعاش أحمد الكواكبي والد كاتبنا عبد الرحمن عيشة كلها تقوى وعلم وحب للخير واصلاح بين الناس حتى توفي سنة ١٨٨٢ ميلادية ودفن في جامع الكواكبي وقد أنجب ولدين أكبرهما عبد الرحمن وأخوه مسعود الكواكبي الذي عمل عضوا بمجلس المبعوثين العثماني (النواب) ومحكمة التمييز بدمشق وعضوا في المجمع العلمي العربي بدمشق .

مولده ونشأته الأولى :

يؤكد كثير من المؤرخين أن الكواكبي ولد سنة ١٨٤٨ ميلادية لكن ابنه الدكتور أسعد الكواكبي في البحث الذي نشرته له مجلة الحديث بحلب سنة ١٩٥٢ ميلادية بمناسبة مرور خمسين عاما على وفاته يذكر أن والده قام بعملية تصحيح لسنه فجعل مولده سنة ١٨٤٨ حتى يصبح سنه مطابقا لما تتطلبه عملية الانتخابات في حلب.

والانتخابات التي يشير اليها الدكتور أسعد الكواكبي هي عملية انتخاب مجلس المبعوثين الذي تقرر اجراء الانتخابات بشأن اختيار أعضائه بموجب القانون الأساسي (الدستور) الذي أصدره السلطان عبد الحميد الثاني في ٧ ذو الحجة سنة ١٢٩٣ هـ (١٨٧٦ م) حيث اشترط بموجب المادة ٦٨ من هذا القانون ألا تقل سن المرشح لمجلس المبعوثين عن ثلاثين سنة .

لكننا لا نجد بالرجوع الى قوائم اعضاء مجلس النواب العثماني الذي تم انتخابه على عهد السلطان عبد الحميد الثاني والذي عقد جلسته الأولى في ١٩ مارس ١٨٧٧ اسم عبد الرحمن الكواكبي (١).

كذلك لا نجد في ترجمة حياته ما يشير الى دخوله انتخابات هذا المجلس ، ولا نعرف السبب الذي من أجله أحجم الكواكبي عن خوض غمار هذه الانتخابات بعد أن قام بتصحيح سنه على حد قول ابنه أسعد الكواكبي . لعل السبب في ذلك هو شعور السيد عبد الرحمن الكواكبي ان الحياة النيابية التي قررت الدولة العثمانية العمل بها على عهد السلطان عبد الحميد الثاني لم تكن عن أقتناع وايمان من جانب المسئولين العثمانيين بقدر ما هي خطوة اتخذت لمواجهة احداث خارجية طارئة واجهت الدولة العثمانية . وآية ذلك ان مدحت باشا (أبو الدستور وصاحب فكرته) نفي من البلاد العثمانية قبل ان يجتمع مجلس المبعوثين للمرة الأولى .

---

(١) Deverepx: The first Ottoman Constitutional Period.

مصدرنا الرئيسي اذا في تحديد تاريخ ميلاد عبد الرحمن الكواكبي هو ما ذكره ابنه أسعد حين ذكر ان والده ولد بحلب سنة ١٨٤٨ ميلادية ·

وعندما بلغ عبد الرحمن الكواكبي السادسة من عمره توفيت أمه السيدة عفيفة بنت مسعود آل النقيب وكانت من أسرة رفيعة المقام · فقد شغل ابوها منصب مفتي انطاكية · وعلى اثر وفاتها كفلته خالته السيدة صفية بنت مسعود النقيب حيث اقام معها في انطاكية وكانت سيدة اشتهرت بنبوغها وذكائها ، علمته اللغة التركية ومبادىء القراءة والكتابة · ثم كان ان استدعاه والده ليقيم معه في حلب حيث عني بتعليمه العلوم العربية والتركية والفارسية· لكنه لم يلبث أن سافر مرة ثانية الى انطاكية سنة١٢٨١هـ (١٨٦٤م) حيث تتلمذ على يد أستاذين فاضلين من أقاربه العلامة عبد الرحمن العلبي والسيد نجيب النقيب عم والدته · وكانت شهرتهما قد جاوزت الآفاق ، فقد عين الخديو توفيق السيد نجيب النقيب مربيا لابنه عباس حلمي ·

لكن اقامة عبد الرحمن الكواكبي بانطاكية هذه المرة لم تطل ذلك أنها لم تتجاوز العام ، فعاد الى حلب ليقيم مرة أخرى مع والده وليلحقه بالمدرسة الكواكبية ·

وكانت احدى مآثر أجداد الكواكبي اقامتهم مدرسة لتعليم العلوم الشرعية سميت بالكواكبية نسبة اليهم ·

عاد الكواكبي ليلتحق بهذه المدرسة التي كان ابوه آنذاك مديرها وأحد أساتذتها الأفاضل · فقد ذكر السيد كامل الغزى ان الشيخ أحمد (والد عبد الرحمن الكواكبي) كان من أجل علماء حلب في العلوم الآليه وأدقهم نظرا في مسائل الفتوى وباقي العلوم الدينية

تلقى تعليمه على يد والده الغزى . وفى المدرسة الكواكبية كان الشيخ أحمد يلقى دروسه التى حضرها وتتلمذ عليه ابنه عبد الرحمن فأجاد اللغة العربية والعلوم الشرعية . كما تلقى الكواكبى فيها مبادىء العلوم الرياضية وغيرها من العلوم الحديثة وما أن بلغ الكواكبى الثانية والعشرين من عمره حتى بدأ يكتب فى جريدة الدولة الرسمية فى حلب وكانت تسمى فرات . وكان المؤرخ التركى أحمد جودت باشا قد أسس هذه الجريدة سنة ١٨٦٧ م حين كان واليا على حلب ، وجعلها بعنوان غدير الفرات وظلت سنتين تصدر بهذا العنوان ، ثم حذفت كلمة غدير وأصبحت (فرات) فحسب تيمنا بفيض النهر (نهر الفرات)(١) الذى عاش الحلبيون قرونا ينتظرون قدومه اليهم . (١) وكانت هذه أول صحيفة اسبوعية تصدر فى عاصمة ولاية حلب ، هدفها نشر أخبار الولاية وأوامر الحكومة واعلاناتها . وقامت مطبعتها التى كانت المطبعة الثانية بعد المطبعة المارونية بطبع مطبوعات الحكومة المختلفة . ومن المرجح ان تكون معدات المطبعة قد أرسلت من الأستانة هى وحروفها شأنها فى ذلك شأن معظم المطابع الرسمية التى انشئت فى الولايات العثمانية . (٢)

وصدر العدد الأول من هذه الجريدة فى ٢٣ من محرم ١٢٨٤هـ الموافق ٢٧ مايو سنة ١٨٦٧ بادارة جبرائيل برغود بالعربية والتركية والارمنية ثم اقتصرت منذ العدد الواحد بعد المائة على العربية والتركية فقط .

ظل الكواكبى يعمل فيها خمس سنوات ثم تركها سنة

---

(١) عبد الكريم غرايبه : سورية فى القرن ١٩ ص ٢٤٨ وكذلك سامى الدهان : الكواكبى ص ١٩

(٢) خليل صابات : تاريخ الطباعة فى الشرق العربى ص ٩٨

١٨٧٨ (١) ليحرز في جريدة سماها الشهباء بالاشتراك مع هاشم العطار (٢) .

وكانت هذه الصحيفة أول معلن اذاع بين الناس عبقرية الكواكبي وكشف لهم ما كان عليه من المنزلة الرفيعة في عالم الأدب والسياسة ولذا اغتبط الناس بهذه الصحيفة واقبلوا عليها أيما اقبال « غير أنهم لسوء الحظ لم يتمتعوا باستجلاء محاسن هذه البكر الوحيدة سوى أيام قليلة حتى فاجأها القدر بانقضاء الأجل » (٣) .

وكانت صحيفة الشهباء هذه اسبوعية شأنها شأن الفرات ، لكن (الشهباء) امتازت بأنها أخذت تبث في الناس روح العزة وتحيي منهم موات الأمل ، لكن والي حلب كامل القبرصي الذي أصبح صدرا أعظم للدولة العثمانية فيما بعد ، كان يكره حرية الصحافة فبادر الى تعطيل هذه الصحيفة بعد ان بدأت تشير الى استبداد السلطان عبد الحميد من طرف خفي ؛ واستجاب الكواكبي لقرار اغلاقها فعطلها بعد صدور ثلاثة أعداد منها (٤)

لكن الروح الحرة التي تجسمت في شخصية الكواكبي لايمكن أن تيأس لأن اليأس ليس من شيم النفوس الأبية الصامدة في وجه

---

(١) يقول الاستاذ كامل الغزي : نهر الذهب في تاريخ حلب جـ ٣ ص ٣٩٣ انه تولى أمر الترجمة لجريدة الفرات بعد أن تركها فقيد الوطن السيد الفاضل عبد الرحمن أفندي الكواكبي وظل الغزي يتولى الترجمة من التركية الى العربية في هذه الجريدة مدة ٢٠ سنة بعد ترك الكواكبي لها .

(٢) يقول الاستاذ غرايبه (سوريا في القرن ١٩) ان تاريخ صدور هذه الجريدة ١٠ ـ ٥ ـ ١٨٧٧ ويؤكده كذلك فيليب دي طرازي بينما يذكر سامي الدهان نقلا عن راغب الطباخ أن الكواكبي أنشأها سنة ١٨٧٨ م .

(٣) كامل الغزي : مجلة الحديث حلب ١٩٢٩ العدد السادس وتاريخ ما أهمله التاريخ من سيرة عبد الرحمن الكواكبي بطل الحرية وفقيد الشرق ص ٤٠٤ ومابعدها .

(٤) عبد الكريم غرايبه : سورية في القرن ١٩ ص ٢٤٨

الطغيان والاستبداد . فما كادت صحيفة الشـــهباء التى اصدرها الكواكبى تعطل ، حتى أصدر صاحب امتيازها غيرها سماها جريدة (الاعتدال) فى ٢٠ يوليو ١٨٧٩ باللغتين العربية والتركية وفوض تحريرها للكواكبى (١) . وجعل الكواكبى أحد الأهداف الأساسية لهذه الصحيفة الكشف عن ســيئات المأمورين (الموظفين) وعرض حاجات البلد وتوسيع دائرة المعارف (٢) .

لكن هذه الصحيفة التى اختلفت عن غيرها من الصـحف فهى لا تكيل المديح للسلطان ولا تخلع عليه من الألقاب ما تخلعه غيرها من الصحف والتى تصدت للكشف عن سـيئات الموظفين وتعريف الناس بحقوقهم ، كانت كفيلة أن تلقى من والى حلب جميل باشـــا ما لقيته الصحيفة السابقة (الشهباء) على يد سلفه كامل القبرصى. فعطلت الصحيفة الجديدة مثلما عطلت سابقتها ، فقد كان الكواكبى أول صحافى حلبى يحرر فى الصحف مقالات اجتماعية وبحوث فى شتى المجالات يختلف عما يكتبه غيره فى الصـــحف الأخرى التى اقتصرت ما احتوته على البيانات الرسمية أو البلاغات الحكومية .

وترك الكواكبى الكتابة فى الصـحافة حينا ليتولى عددا من المناصب الادارية فقد عين من قبل فى ٩ مارس ١٨٧٩ عضوا فخريا فى لجنتى المعارف والمالية بالولاية . ثم عين بعد عام عضـــوا فخريا كذلك فى الأشغال العامة كما تولى منصب مأمور للأجراء (رئيسا لقلم المحضرين) فى ولاية حلب ثم عضـــوا فخريا كذلك فى لجنـــة امتحان المحامين . وحين بلغ التاســـعة والعشرين من عمره عينته الحكومة مديرا فخريا لمطبعة الولاية الرسمية فى حلب فى سنة ١٨٨١ ميلادية (١٣٩٧ هـ) ثم رئيسا فخريا للجنة الأشـــغال العامة ثم

---

(١) كامل الغزى : مجلة الحديث العدد السادس سنة ١٩٢٩

(٢) المصدر السابق ص ١٨٤

عضوا في محكمة التجارة بولاية حلب بناء على أمر من وزارة العدل العثمانية • وفى سنة ١٨٨٦ عاد الكواكبى ليشـــغل وظيفة مأمور الأجراء وهي الوظيفة التي كان يشغلها من قبل •

وعرف عن الكواكبى في كل وظائفه التي تولاها نزاهته وجديته في عمله واصراره على نصرة الحق والحرص على مصالح الجماهير ايمانا منه أن الموظف خادم للشعب وليس سيدا على الناس • كما عرف عن الكواكبى كرهه للنفاق والتصدي للاستبداد والعمل على دك صروح الظلم وكان ذلك كله مفهوما جديدا غير مألوف لدى الجمهرة الغالبة من الموظفين الذين كانوا يرون الوظيفة ســبيلا الى جاه وسؤدد • وحان الوقت الذى خشي فيه والى حلب (جميل باشا) من الكواكبى وبدأ يراقب حركاته خاصة حين علم أن جميع ما تصدره صحف الاستانة وبيروت من طعن فيه مســتمد من قلم الكواكبى وبايعاز منه • وحين انعدم التعاون بين الكواكبى ووالى حلب ، لم ير الكواكبى بدا من الاستقالة من وظائفه مؤثرا أن يخدم الناس عن غير طريق الوظيفة الحكومية •

ففى ســنة ١٨٨٦ فتح الكواكبى مكتبا للمحاماة لكنه كان متلقى لأصحاب الحاجات والمتظلمين والمساكين يسرون اليه بشكاواهم• فالمعروف أن الكواكبى أحب البؤساء والضعفاء حتى لقب في حلب بأبى الضعفاء • وجاء في جريدة الرائد المصرى أنه (الكواكبى) كان له في بلده مكتب للمحاماة يصرف فيه معظم نهاره لرؤية مصـالح الناس ويبعث الى المحـاكم من يأمنهم من أصـحابه ليدافعوا عن المظلومين والمستضعفين • ومع تمسكه بالاسلامية والمطالبة بحقوقها والاستهلاك في سبيل نصرتها ، كان بعيدا عن التعصب يسـتأنس بمجلسه المسلم والمسيحي واليهودى على الســواء ، لأنه كان يرى رابطة الوطن فوق كل رابطة • (١)

(١) مارون عبود : رواد النهضة الحديثة ص ٢٠٢

ومما لا شك فيه ان ممارسة الكواكبى لوظائف القضاء هى التى جعلت من حقه ممارسة المحاماة كما كان متبعا فى ذلك الحين فضلا عن ان دراسته القانونية الواسعة التى اكتسبها بالمطالعة والخبرة والمران قد أفادته كثيرا فى عمل كمحام فأصبح ناجحا فى هذا المجال . وقال السيد رشيد رضا فى ذلك ان الفقيد (الكواكبى) درس قوانين الدولة درسا دقيقا وكان محيطا بها يكاد يكون حافظا لها ، وله انتقاد عليها يدل على دقة نظره فى علم الحقوق والشرائع ، ولهذا عينته الحكومة فى لجنة امتحان المحامين ، ولا أعلم أنه برز فى فن أو علم مخصوص فاق فيه الأقران ، ولكنه تلقى ماتلقاه من كل فن بفهم وعقل بحيث إذا أراد الإشتغال عملا وتأليفا أو تعليما يتسنى له أن ينفع نفعا لا ينتظر من الذين صرفوا أعمارهم ... على أن الفقيد لا يتعلم شيئا من علوم النفس والأخلاق والسياسة وطبائع الملل والفلسفة فى مدرسة ، وانما عمدته فى هذه العلوم ما طالعه منها من المؤلفات والجرائد التركية والعربية » (١) وأصبح مكتب الكواكبى المحامى مقصدا للمتظلمين ومعقدا ورجاء للمتظلمين . وكان من شأن ذلك أن يقض مضجع الوالى خاصة وأن الكواكبى أخذ يدل أصحاب الحاجات وأولئك الذين لم ينصفهم الوالى أو غبن حقوقهم ـ كيف يستردون حقوقهم منه وكيف يتصدون له مطالبين بحقوقهم المسلوبة . ومن ذلك تلك القضية المشهورة فى ذلك الحين قضية ورثة مصطفى كخيا طلب الوالى منهم رشوة قدرها خمسة آلاف ليرة عثمانية ذهبا فامتنعوا عن دفعها فحرض الوالى الفلاحين المستأجرين لأرضهم عليهم ، ولجأ الورثة الى الكواكبى يسألونه الرأى فكان ان وقف معهم يسطر لهم ظلامتهم الى الباب العالى حتى ورد الأمر باطلاق سراح من كان الوالى قد اعتقله منهم . وقويت شوكة المتظلمين من الوالى بعد هذه

---

(١) قدرى قلعجى : عبد الرحمن الكواكبى سلسلة أعلام الفكر العربى ص ١٩ .

الحادثة فكثر عددهم وقصدوا الكواكبى الذى أصبح بالنسبة لهم ملجأ وملاذا ٠

وكثرت شكاوى الشاكين من الوالى والكواكبى يسطر لهم هذه الشكاوى بأسلوب بارع مثير حتى اضطر السلطان عبد الحميد الثانى برغم حبه للوالى أن يرسل مندوبا من طرفه للتحقيـــق فى تلك الشـــكاوى بغية استرضاء أهـل حلب وكسب مودتهم للسـلطنة العثمانية ٠ وكان المندوب اسمه صاحب بك رئيس دائرة المحاكمات في شورى الدولة وأصبح فيما بعد شيخا للاسلام ٠ وقد وصل الى حلب ومعه لجنة من المحققين أقاموا فى حلب مدة تزيد على الشـــهرين ينظرون في الشكاوى المقدمة من خصـوم الوالى وكلها محررة بقلم الكواكبى ٠ وكان السخط من جانب افراد الشعب فى حلب قد بلغ منتهاه ضد الوالى فتصادف اثناء وجود مندوب الباب العالى فى حلب ان اعتدى محام أرمنى على الوالى فى ساحة باب الفرج فى ١٦ صفر ١٣٠٤ هـ (الموافق منتصف نوفمبر ١٨٨٦ م) وذلك بأن اطلق عليه عيارا من مسدسه ولكنه أخطأه فقبض عليه وأرسل الى السجن وحكم عليه بالحبس مدة خمسة عشر عاما ٠ وأرادها الوالى فرصة يتخلص فيهـا من أعدائه وفى مقدمتهم بطبيعة الحال عبد الرحمن الكواكبى فقبض عليه وأودعه السجن ٠ ويقول السيد كامل الغزى فى شرحه لهـذه الحادثة التى شغلت أذهان الناس فى ذلك الحين « ولكن صاحب بك مندوب الباب العالى أبرق الى الاستانة يقول « أنا عازم على الشخوص الى الاستانة لأننى لا أستطيع البقـاء فى بلدة لا يعرف فيها نظام ولا قانون ، وأبرق محمد على باشا قائد الجندية (فى حلب) الى مقام الشيرية العسكرية يقول ما معناه أننى غير مسئول عما اذا حدث فى حلب ما يخل بالسلام لأننى لم يبق لى نفوذ على القوة العسكرية ٠ » (١) ٠

---

(١) كامل الغزى مجلة الحديث العدد السادس ١٩٢٩ ويشرح الغزى كيف=

ولما اطلع السلطان على هاتين البرقيتين رأى ان الامر قد تفاقم فاصدر أمره بتنحية جميل باشا عن ولاية حلب وارسـله وانيا على الحجاز وأفرج عن المسجونين وعين عثمان باشا الأعرج وكان مقعدا يحمل على كرسي ليصل الى مكتبه •

وما كاد الوالي الجديد يصل الى حلب حتى عين الكواكبي بعد برهة من الزمن رئيسا لبلديتها وكان مجلسها البلدي على حد قول كامل الغزي في غاية الانحطاط وسـوء الادارة • فتفتقت عبقرية الكواكبي عن عديد من وجوه الاصلاح المختلفة ، ومن ذلك أنه وضع حواجز على مدينة حلب تمنع الجمال المحملة بالبضائع من الدخول الى قلب المدينة وما كان يسـببه دخولها من عدم نظافة الشـوارع وازدحامها • كذلك فكر في انشاء مرفأ للسويدية ومد خط حديدي منها الى حلب • كما قام بتجفيف المستنقعات المحيطة بها حتى يقضي على البعوض والأمراض التي يسببها•ومن أهم ما فكر فيه الكواكبي أثنـاء توليه رئيس بلدية حلب هو توليد الكهرباء من نهر العاص وذلك بواسطة شلال يحدثه من مياه النهر •

ثم تولى الكواكبي رئاسة غرفة التجارة والمصرف الزراعي في حلب فأصلح شئونهما ووضع جداول احصائية تشهد على المامه الكبير بشئون الاقتصاد ومسائل العمران •

لكن الكواكبي تعرض قبل ذلك لأزمة ثانية انتهى الأمر فيها بسجنه مثلما سجن من قبل على عهد الوالي جميل باشا •

وذلك ان والي حلب نقل وجاء مكانه (سنة ١٣٠٧هـ) ١٨٩٠م عارف باشا « سماه أهل حلب (عارف صحيفة) لأنه أتخـذ له من

= عومل الكواكبي معاملة سيئة في السجن فحبس حبسا منفردا ووقف على باب غرفته جنديان مسلحان •

أعضاء مجلس ادارة الولاية وكبار موظفيها اصحابا يخرجون معه فى بعض أيام الأسبوع فى احدى متنزهات البلدية بقصد الترويح ويأتى كل واحد منهم بصحن فيه لون من الطعام لذيذ ولما كان الوالى يكثر من هذه الوليمة • فلقبه الحلبيون بعارف صحيفة » (١)

ولما كان هذا الوالى فاسدا مرتشيا فقد تصـدى له الكواكبى يتتبع سقطاته ويندد به فى صحف الاستانة وبيروت وصار الوالى ينتظر الفرصة المناسبة لينتقم فيها من الكواكبى •

وواتته هذه الفرصة حين حدث فى أحد الأيام ان كان قنصـل ايطاليا بحلب وهو المسيو « أنريكو ويتو » وهو يمر فى محلة الجلوم أحد أحياء حلب حيث يسكن الكواكبى أن وقع على ظهره حجر صدمه صدمة عنيفة تألم منها وأرسل الى الوالى تقريرا بذلك يطلب منـه البحث عن الضارب واجراء العقوبة القانونية وفتحت هذه الحادثة للوالى بابا يلج منه الى الصـاق التهمة بالكواكبى لا سـيما وقد كانت الحادثة بالقرب من مسكنه • ويمضى السيد كامل الغزى صديق الكواكبى ورفيقه يقص علينا خبر هذه الحادثة (٢) بالقول أن الوالى أوعز الى بعض شياطينه (يقصد جواسيسه وأعوانه) بأن يرفعوا اليه تقريرا ان الكواكبى منضم الى عصابة أرمينية وأنه أغرى بعض الناس فرشق على قنصل ايطاليا حجرة أصابت ظهره محاولا بذلك احداث فتنة بين الأرمن والمسلمين فى حلب وحالما قدمت هذه الاخبـارية أمر الوالى رئيس الشرطة بالذهاب الى منزل السـيد عبد الرحمن والدخول اليه قسرا وتفتيش مكتبه وخـزانة أوراقه فتوجه رئيس الشرطة على الفور الى منزل الكواكبى وكان غائبا عنه فدخله قسرا ومعه طائفة من أتباعه وقصدوا خزانة كتبه وألقوا فيها

---

(١) كامل الغزى : مجلة الحديث العدد السادس سنة ١٩٢٩ تاريخ ما أهمله التاريخ من سيرة الكواكبى •

(٢) المرجع السابق ص ٤٠٤ وما بعدها •

ورقة مزورة واستحضروها معهم وهي تركية العبارة مجررة بحروف أرمنية مضطربة التركيب يفهم منها ان أحد زعماء الارمن يعد السيد عبد الرحمن بأنه عما قريب يقوم باحداث ثورة بين المسلمين وبين الارمن فى حلب . وقبض الشرطى على هذه الورقة وطار بهـا الى الوالى فاستلمها منه وفي الحال أصدر أمره بالقـاء القبض على الكواكبى والزج به فى السجن » .

وخرج الكواكبى من السجن ليحاكم أمام رئيس محكمة تم الاتفاق بينه وبين الوالى على أن يصـدر حكم الاعدام على الكواكبى ونفذ كل ذلك وصدر الحكم بالاعدام على أن يكون قابلا للاستئناف ثم التمييز . وتلقى الكواكبى الحكم برباطة جأش وثبـات نفس وشرع يطلب من المراجع العليا أن تكون محاكمتـه التمييزية فى عدلية بيروت لعداوة شخصية بينه وبين الوالى فأجيب الى طلبـه ونقل مع أوراق الدعوة الى محكمة بيروت واعتقل فى سجنها .

يقول السيد كامل الغزى انه في هـذه الأثناء أرسـل له الكواكبى يطلب منه الاتصال بقنصل ايطاليـا فى حلب لكى يكتب لقنصل دولة ايطاليا فى بيروت بأن الكواكبى لا دخل له فى حادث الاعتداء عليه . وكتب قنصل ايطاليا فى حلب بذلك فقد كان على علاقة ودية مع الغزى وكان على يقين بأن الكواكبى لا دخل له فى الحادث وليست من صفاته اتيان مثل هذه الأفعال . وكان القنصل قد تحرى فى ذلك الحين عن الحادث وعلم ان الحجر الذى أصـابه كانت مقذوفة بمقلاع أحد الاولاد وانتهى الامر بأن برأت محكمـة بيروت الكواكبى وعاد الى حلب ليمضى فى التشهير بعارف باشـا حتى عزل عن حلب فى شهر جمادى الثانية سنة ١٣١٠هـ (١) ديسمبر ١٨٩٢ .

---

(١) كامل الغزى : مجلة الحديث ١٩٢٩ العدد السادس .

وبعد عزل عارف باشــا من ولاية حلب عاد عثمان باشـا الاعرج الى ولايتها فعهد للكواكبي برئاسة غرفة التجارة والمصرف الزراعي في حلب ٠

لكن الكواكبي آثر الاستقالة من وظائفه وسافر الى استانبول (سنة ١٣١٢ هـ) ١٨٩٤ م بقصد السياحة فانزوى متنكرا في أحد أماكنها لا يريد أن يعرفه أحد أو يتعرف عليه أحد وكأنه أراد أن يلم بأحوال الامور بها حتى يصور الاستبداد وأهله عن تجربة والمام وبصيرة أو كما يقول الغزي كأنه لم يقصد من هذه السياحة الا أخذ الدروس في فن طبائع الاستبداد من مدرسته الكبرى قصر البلاط السلطاني المعروف باسم (يلديز) فهو أعظم معهد تلقى فيه دروس هذا الفن العظيم الذي جمـع منه في كتـابه طبائع الا استبداد مالم يجمعه أحد قبله ولاينسج على منواله أحد بعده ٠

لكن الكواكبي ما كاد يصـل الى الاسـتانة حتى كانت الجواسيس المنبثة في كل مكان منها قد نقلت للسلطان عبد الحميد الثاني وحاشيته خبر وصوله اليها ٠ ويبدو أن السلطان عهد الى أبي الهدى الصيادي باستضافة الكواكبي عنـده ٠ كان الصيادي من حلب بلدة الكواكبي لكن ما أبعد الفرق بين الرجلين هذا متملق منافق فقير في حسبه ونسبه استطاع أن يتقرب الى السـلطان عبد الحميد حتى أصبح مستشاره الخاص وكان رقيبا على كل صوت حر وهو (الصيادي) الذي أوعز الى عبـد الحميد باسـتضافة الافغاني عنده حتى يراقبه كما ألف فيه عبد الله النديم كتابا سـماه المسامير نعته بأحط الصفات (١) كذلك انبرى الشيخ رشيد رضا الى نقده وما ادعاه الصـيادي من تمجيد لحسبه ونسبه بل فضـل نفسه على الشيخ عبد القادر الجيلاني والشيخ احمد الرفاعي فألف

---

(١) أحمد أمين : زعماء الاصلاح في العصر الحديث ص ٢٤٤

رشيد رضا كتابا سماه « كتاب الحكمة الشرعيـــة في محـــاكمة القادرية والرفاعية » وبعدها أزمع رشيد رضا على ترك الشام الى مصر حتى لا يتعرض لأذى أبي الهدى الصيادى المقرب من السلطان عبد الحميد الثانى ٠

كان لأبي الهدى الصيادى اذاً نفوذ كبير في الاستانة يتصدى للرجال الأحرار أى أنه كان أداة السلطان عبد الحميد في هـــذه الناحية ولذلك وبرغم ان الصيادى كان يكره الكواكبى فقـد كان بين أسرتيهما عداء شديد فى حلب لتطاول آل الصيادى على ادعاء حقهم فى نقابة الأشراف فى حلب بدلا من آل الكواكبى ، برغم ذلك استضاف الصيادى الكواكبى عند وصوله للاستانة ٠ ومن ثم لم تطل اقامة الكواكبى بها فغادرها عائداً الى حلب ٠

وعندما عاد الكواكبى الى حلب أخذ١٣١٣هـ (١٨٩٥م) التزام شركة للتبغ حيث فوضته الشركة فى كل ما يعمل ٠ فأقبل الناس لثقتهم فيه على شراء تبغه لجودته ولأنه جعل ثمنه رخيصا ٠ وكان الأمل أن يربح الكواكبى أرباحا طائلة من وراء ذلك ٠ لكن السلطة القائمة فى حلب تصدت له فأوعـــزت الى بعض مثيرى الشـغب باحداث فتنة نجم عنها مشاغبات ومذابح فكسدت بضاعة الدخان وخسر الكواكبى من هذا الالتزام ٠ ثم كان أن عين الكواكبى فى سنة ١٨٩٤ م بناء على أمر من المشيخة الاسلامية الى قاضى حلب ـ فى وظيفة رئيس كتاب للمحكمة الشرعية فى حلب ٠ فسرعان ماظهرت وجوه الاصلاح فى هذه المحكمة فمنع اختـــلاط النساء بالرجال وجعل لكل مكانا ينتظر فيه دوره ٠ ورتب الأوقات ونظم الدفاتر والسجلات وبقى فى هذه الوظيفة سنتين ٠ لكن الحاقدين عليه وفى مقدمتهم والى حلب كانوا له بالمرصاد ، فاتفق الوالى مع القاضى على تنحيته وعين مكانه كامل الغزى صديق الكواكبى وصفيه برضـا الكواكبى نفسه ٠

وعهد الى الكواكبى بعدها برئاسة لجنة بيع الأراضى الأميرية ثم رئيسا لغرفة التجارة فى حلب • وكان الكواكبى كشأنه فى كل ما يسند اليه من أعمال نزيها مخلصا كفئاً يحرص على خدمة الناس أكثر مما يحرص على خدمة الرؤساء على حساب الشعب ، معتدا برأيه معتزا بكرامته • فكان من الطبيعى أن يصطدم بأولئك الذين كانوا ينظرون للوظيفة على أنها تكليف لا تشريف ليست مجالا للرشوة والاستغلال وجلب المال •

ولكن نفس الكواكبى ضاقت بهذا الجو الكئيب وبهذه الحرية وقد رآها تحتضر ورأى الفساد وقد استشرى فآثر أن يغادرها الى مكان ينعم فيه بحريته ، لأن الانسان على حد قوله يتجرأ أن يقول فى بلاد الحرية ما لا يتجرأ عليه فى بلاد الاستبداد • بل ان بلاد الحرية تولد فى الذهن من الافكار والآراء ما لا يتولد فى غيرها •

لكن الكواكبى كتم خبر سفره حتى عن أقرب المقربين اليه وعن أخلص أصدقائه فأعلن أنه يزمع التوجه الى عاصمة الدولة العثمانية ليحاول أن يستبدل نيابة راشيا بغيرها وكان شيخ الاسلام قد عرض عليه نيابة قضاء راشيا فاستقلها وبقى فى حلب مدة • لكن الحقيقة أنه كان يعد العدة لرحيل لا عودة فيه الى مكان يستطيع أن يرفع قلمه وصوته بالاصلاح • أعد الكواكبى العدة للسفر الى مصر فى طى من الكتمان ولم يفض به الى أحد •

ويقول كامل الغزى انه ذهب لتوديعه زاعما له أنه مسافر الى استانبول « وكنت عالما بكتابه جمعية أم القرى وقد شعرت منه العزم على طبعه • فوقع فى نفسى أنه سيعرج على مصر لطبعه ونشره اذ لا يمكنه أن يطبعه فى غيرها وحذرته من ذلك وقلت له اياك يا أخى والسفر الى مصر فانك متى دخلتها تعذر عليك الرجوع الى وطنك لأنك تعد فى الحال من الطائفة المعروفة باسم جون ترك(١)،

(١) أى الطائفة المتعاونة مع الانجليز من الاتراك •

لا يتأخر وسمك بهذه السمة قيد لحظة ، لما اشتهرت به وعرفت به من شدة المعارضة وانتقاد الاحوال الحاضرة فقال (أي الكواكبي) لم أعزم الا على السفر الى استانبول للغرض الذى ذكرته لك . ثم ودعني ومضى وأنا أسأل الله أن يرعاه بعين رعايتـــه وأن يجعـل التوفيق رائده والنجاح مرشده وقائده . وكانت مبارحته حلب فى أوائل سنة ١٣١٦ هـ (١) (الموافق سنة ١٨٩٩ ميلادية)

(١) كامل الغزى مجلة الحديث العدد السادس سنة ١٩٢٩

برغم قصر المدة التى قضاها الكواكبى فى مصر والتى لم تتجاوز الأربع السنوات فقد جاءها سنة ١٨٩٩ وتوفى بها سنة ١٩٠٢ ميلادية ، الا أننا رأينا أن نفرد لها فصلا خاصا ذلك أنها على قصرها كانت أهم فترة فى حياة الدارس لشخصية الكواكبى • ففيها رفع القلم مجاهرا بسقوط الاستبداد الذى فرضه السلطان عبد الحميد الثانى على البلاد وهاجم العثمانيين وسياستهم فى الحكم وفيها نشر كتابه أم القرى الذى أحدث دويا هائلا ولعب دورا كبيرا فى حركة اليقظة العربية على نحوما سنذكره عند حديثنا عنه • كما جمع مقالاته المتفرقة التى كتبها عن الاستبداد فى كتابه الذى سماه طبائع الاستبداد •

كانت مصر فى الوقت الذى جاءها فيه الكواكبى ملتقى هاما لدعاة التحرر وزعماء الفكر الحر الذين ضاقت بهم بلادهم على عهد السلطان عبد الحميد الثانى • فلقد رأوا أن الاستبداد الذى فرضه هذا السلطان قد أفسد صفات النفوس وضيع أخلاقها فأصبح النفاق والتملق من سمات هذه النفوس • فلقد سد هذا السلطان على الناس أنفاس الحرية وخنق ارادتهم ليستعلى سلطانه وعظم بين هؤلاء الضعاف شأنه فزلت نفوسهم وركبها التزلف والتقرب ، واذا وصلت النفوس الى هذا الدرك الأسفل انهارت قواعد الأخلاق واختلت الموازين فخاف البرىء وأمن المسيىء وتقدم الهازل وتأخر المجد وراجت الشعوذة • وصار المرء لايأمن على عرضه وماله ودمه

لا يعرف كيف يهدر دمه ولا يدرى متى يسلب ماله ويهتك عرضه ٠ واذا خافت النفوس صغرت واذا صغرت أصبحت تمثل الدعة والهدوء وتنفر من الطموح والسمو وفي كل ذلك معنى انهيار الأمة ٠

من أجل هذا كانت باريس والقاهرة الملتقيين الهامين للرجال الأحرار الذين فروا من وجه السلطان عبد الحميد والذين بدأوا العمل خارج أرض الدولة العثمانية لاسقاط صرح الظلم والاستبداد الذى فرضه هذا السلطان على دولته التى كانت البلاد العربية خاصة فى مشرقها تمثل أحد أجزائها الرئيسية ٠

ففى الوقت الذى تكونت فيه جمعية سرية ثورية فى القسطنطينية من طلبة المدرسة الطبية العسكرية سنة ١٨٨٩ م والتى اتخذت لنفسها هدفا هو العمل على عزل السلطان عبد الحميد والتى انتشرت من مدرسة الطب الى بقية المدارس العسكرية الأخرى فى عاصمة الدولة العثمانية ، كان نشاط الأحرار فى المهجر على أشده وخاصة فى باريس حيث فر اليها عدد من الأحرار العرب فى مقدمتهم خليل غانم وهو مسيحى عربى من بيروت كان نائبا فى مجلس المبعوثين (النواب العثمانى) سنة ١٨٧٨ م عن احدى مناطق سورية ، فلما عطل السلطان عبد الحميد البرلمان فر الى أوربا وأقام فى باريس حيث أسس جريدة تركيا الفتاة La jeune Turquie بالاتفاق مع الأمير أمين ارسلان ٠ ولم يكتف خليل بذلك بل أخذ يكتب فى مختلف الصحف الفرنسية خاصة جريدة (الديبا) Deba كتب فيها مقالات يهاجم حكم السلطان عبد الحميد واستبداده علاوة على توليه ادارة جريدة فرانس انترناسيونال France International (١) ومن العرب الذين

---

(١) توفيق على برو : العرب والترك فى العهد الدستورى العثمانى ١٩٠٨- ١٩١٤ ص ٥٠

لجأوا الى باريس كذلك أحمد رضا الذى وصل الى باريس ١٨٨٩ ويعتبر أحمد رضا من أكبر اعلام حركة المقاومة ضد السـلطان عبد الحميد تلقى تعليمه فى أوربا وبعضه فى فرنسا وكان يجيد الفرنسية اجادة تامة ٠ وكان قد شغل بعض الوقت مديرا للتعليم فى ولاية بروسة ثم غادرها الى أوربا ليعمل مع زملائه الأحرار حيث اشترك مع خليل غانم فى اصدار جريدة (مورث) ٠ وقد افزعت هذه الصحيفة السلطان عبد الحميد فأوعز الى سفارته فى باريس سنة ١٨٩٧ م أن تقيم دعوى باسمه لدى محكمة السين على أحمد رضا وخليل غانم وكانت هذه الصحيفة قد حملت فى اعدادها من الصفات والنعوت هجاء لاذعا لهذا السلطان المستبد فوصفته بأنه المخادع ، الجلاد ، السلطان الطاغية ، الدموى ، الظالم ، المنحل ، بلية المسلمين ، الذئب الذى يتولى حراسة حظيرة الشياه والسلطان الأحمر ٠ وبرغم ذلك فان المحكمة لم تحكم على صاحب الجريدة الا بغرامة ١٦ فرنكا وكانت غرامة مؤجلة التنفيذ ! وبررت المحكمة حكمها بان مجازر السلطان عبد الحميد فى أرمنيا وحملات الصحف الأوربية عليه كانت أحد الدوافع لحمل الصحفيين العرب عليه ومن أجل هذا فان حكمها جاء حكما مخففا (١) ٠

وفى الوقت الذى كانت فيه باريس تمثل مركزا هاما من مراكز تجمع الأحرار الذين فروا من وجه السلطان عبد الحميد كانت مصر ملتقى الأحرار العرب خاصة الأشقاء السوريين الذين أبوا أن يستكينوا للضيم أو أن يهادنوا الظلم والاستبداد ٠ وكانت الحال بسورية ولبنان فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر على شيىء من الهدوء والاستقرار ولكن على جانب كبير من الضـنك والضيق ، واذا عدنا القهقرى الى السـنوات العشر التى سبقت

---

(٢) المصدر السابق ص ٥١

منتصف القرن التاسع عشر والى السنوات العشر التى تلته وجدنا لبنان ساحة دموية للثورة الأهلية بين الدروز والنصارى خاصة فتنة سنة ١٨٦٠ التى امتد لهيبها الى سوريا وأسفرت الفتنة عن نظام جديد بلبنان هو نظام المتصرفية فرضته الدول الغربية عليه، لكنه (لبنان) لم ينج من عنجهية المتصرفين الأتراك ولا من فساد بعض هؤلاء المتصرفين وجشعهم فى جمع المال من أى سبيل واشتهر من هؤلاء المتصرفين واصف باشا الذى قال فيه أحد الشعراء حين توفى :

قالوا قضى واصفا وواراه الثرى
فأجبتهم وأنا الخبير بذاته

رنوا الفلوس على بلاط ضريحه
وأنا الكفيل لكم برد حياته

وأمام ظلم وفساد الحكم العثمانى بدأت هجرة السوريين واللبنانيين . وكان من الطبيعى أن تكون مصر هى المهجر القريب الذى تطلعت اليه قلوب الشاميين فالجوار واللغة ووحدة العادات أهابت بالأحرار أن يفروا من ربقة الاستبداد العثمانى الى مكان آمن . ولم يكن هناك خير من فى وادى النيل المكفولة فيه حرية القلم آنذاك(١) . ولقى النازحون من الشام الى مصر فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر أهلا بأهل وأخوانا بأخوان فشاركوا اخوانهم فى مصر الحياة العامة وعاشوا أوفياء لمصر يحسون باحساسها وتخالج قلوبهم آلامها وآمالها ويعملون منها لاسقاط الحكم العثمانى المستبد .

---

(١) عادل الغضبان : الشيخ نجيب الحداد ص ٨ سلسلة نوابغ الفكر العربى .

وكانت مصر في ذلك خاضعة للاحتلال البريطاني ، والاحتلال يشجع كل حركة مناوئة للدولة العثمانية وتلقى منه ترحيبا وحاكم مصر الشاب أنذاك الخديو عباس حلمى الثانى ليس على وفاق مع السلطان فهو بدوره يقرب اليه الفارين من وجه السلطان عبد الحميد . تولى الخديو عباس حلمى الثانى الحكم بعد وفاة والده الخديو توفيق فى السابع من يناير سنة ١٨٩٢ وثارت مشكلة بسبب تعيينه ذلك انه كان قد ولد سنة ١٨٧٤ ولم يكن قد بلغ الثامنة عشرة من عمره ومعنى ذلك انه لايحق لـه تولى منصب الخديوية ولكن حلت المشكلة بالحساب الهجرى . وشهدت مصر فى هذه الفترة صراعا بين الانجليز يريدون أن تزداد قبضتهم على مصر وبين السلطان عبد الحميد يريد أن يثبت سلطانه على مصر كولاية تابعة له . وأخر السلطان عبد الحميد صدور الفرمان الخاص بتعيين عباس حلمى خديويا للبلاد فقد كان يريد تعديل حدود مصر من جهة سيناء فطالب بأن تتخلى مصر عن العقبة لتركيا على أساس أنها كانت تابعة من قبل لولاية الحجاز وأعارتها تركيا لمصر على عهد اسماعيل . وقبل عباس حلمى ما طلبته تركيا حتى يحل مشكلة اصدار فرمانه لكن انجلترا رفضت ذلك وأصرت على صدور فرمان تعيينه على أن يتضمن الفرمان اسناد ادارة شبه جزيرة سيناء الى الخديو طبقا لحدود مصر فى فرمانها الصادر لمحمد على سنة ١٨٤٠ وقبلت تركيا أخيرا وحلت الأزمة (١) . وفى ذلك الحين فترت العلاقة بين الخديو الجديد وسلطان الدولة العثمانية ولقى الأحرار العرب الذين جاءوا الى مصر كل ترحيب منه وتأييد .

وراودت الخديو عباس أحلام وآمال عريضة كشاب برتقى عرش مصر يحاول أن يؤكد سلطانه كخديو للبلاد فهو يريد أن

---

(١) عبد الرحمن الرافعى : مصطفى كامل ص ٣١٤

يؤكد انفصال مصر عن تركيا بل راودته فكرة أن تئول أمر خلافة المسلمين بدلا من السلطان العثماني • ومن أجل هذا أصبحت مصر مجالا لنشاط الأحرار الذين فروا من وجه السلطان عبد الحميد •

جاء الى مصر ابراهيم اليازجي (بن ناصيف اليازجي) ، وكان ابراهيم هذا هو أول صوت انبعث بالدعوة الى القومية العربية في الشام فهو صاحب القصيدة التي وصفها البعض بأنها مارسيلية العرب (أشبة بنشيد الثورة الفرنسية)

تنبهوا واستفيقوا أيها العرب
فقد طمى الخطب حتى غاصت الركب
أقداركم في عيون الترك نازلة
وحقكم بين أيدي الترك مغتصب
صبرا هيا أمة الترك التي ظلمت
دهرا فعما قليل ترفع الحجب
لنطلبن بحد السيف مأربنا
فلن يخيب لنا في جنبه أرب

ولم يكن منتظر أن تطيب الاقامة لابراهيم اليازجي في بلاد الشام بعد هذه الصيحة المدوية فبادر بالهجرة الى مصر حيث أسهم في ميدان الصحافة بنصيب وافر وتوفى على أرضها سنة ١٩٠٦ (١) واقتفى أثر ابراهيم اليازجي شخصية سورية أخرى هو رفيق العظم ، الذى أبى الاستكانة لظلم العثمانيين وفي وطنه الشام فانضم الى الجمعيات السرية المناوئة لهم • ثم ضاقت نفسه بالجواسيس يحيطون به من كل جانب فهاجر الى مصر سنة ١٨٩٤ • كذلك

---

(١) عيسى ميخائيل سابا : ابراهيم اليازجي سلسلة نوابغ الفكر العربي ص ٤٩ وكذلك ارجع الى كتاب : العرب والترك في العهد الدستوري العثماني ١٩٠٨ ـ ١٩١٤ لمؤلفه توفيق على برو ص ٢٧

سافر الى مصر شكيب ارسلان سنة ١٨٩٠ ليلحق باستاذه محمد عبده فقد ذكر شكيب ارسلان في سنة ١٨٩٠ أول مقدمه الى مصر « كنت بين العشرين والواحد والعشرين من العمر فمكثت سبعة أشهر في الاسكندرية ثم جئت الى مصر ، وكان أكثر اجتماعنا في ذلك الوقت باستاذنا الامام الشيخ محمد عبده وبرهطه المعدودين » . ثم ذكر شكيب هذا الرهط وعدد أسماءهم فيهم سعد زغلول والشيخ علي يوسف صاحب المؤيد وكانت صحيفته مدرسة للحق والوطنية والأدب ومنهم أحمد زكي باشا الذى أصبح شيخ العروبة في تحقيقاته (١) .

وهكذا كانت مصر ملتقى للأحرار في ذلك الحين وتموج فيها نهضة أدبية وثابة بفضل أعلام النهضة الأدبية في ذلك الحين وفي مقدمتهم بطبيعة الحال الشيخ محمد عبده الذى عاد من منفاه في بيروت سنة ١٨٨٨ وهو يحاول قدر استطاعته متابعة الاصلاح قاصرا جهوده على الميدانين الاجتماعي والثقافي تاركا الميدان السياسى . ومن المعروف أن الكواكبى اتصل بالأستاذ الامام محمد عبده وكان يجله ويصفه — على حد قول رشيد رضا — بأنه (محمد عبده أعلم من أستاذه الأفغاني . وكان رشيد رضا يخالف الكواكبى في هذا الرأى . وقال الكواكبى حين سأله الخديو عباس حلمي عن رأيه في الشيخ محمد عبده قال ان أفريقيه أخرجت كثيرا من العلماء والفلاسفة . الحكماء ثم أخرجت أخيرا حكيما فاق جميع الحكماء وهو الشيخ محمد عبده وقد روى ذلك السيد رشيد رضا وهو يؤرخ لمحمد عبده .

كذلك ظهر في مصر طبقة من الصحفيين الممتازين في ذلك الحين على رأسهم الشيخ على يوسف صاحب جريدة المؤيد التى

---

(٢) سامى الدهان : شكيب ارسلان ص ٦٩

أفسحت صفحاتها لمقالات الكواكبى . وحفل ميدان الأدب بطائفة من فحول الشعراء منهم سامى البارودى وأحمد شوقى وحافظ ابراهيم فهؤلاء جميعا علا صوتهم بالقصائد العصماء التى خدمت شتى نواحى الاصلاح . كذلك كان هناك جيل صاعد من تلاميذ محمد عبده يشقون طريقهم فى ميادين الاصلاح ومنهم لطفى السيد والعقاد .

تلك كانت حالة مصر يوم وصل اليها عبد الرحمن الكواكبى فى منتصف نوفمبر سنة ١٨٨٩ لم يرافقه أحد من اسرته سوى ابنه الأكبر كاظم .

ولم تمض على مبارحة الكواكبى حلب بضعة عشر يوما الا وعرف الناس بوجوده فى مصر . وأخذت جريدة المؤيد تنشر له كتابه الذى أسماه طبائع الاستبداد فى مقالات متفرقة بعنوان الرحالة كاف . ويقول كامل الغزى فى ترجمته للكواكبى « وأخذت جريدة المؤيد تنشر له تفرقة كتاب طبائع الاستبداد الذى لم يطلعنا عليه مطلقا بخلاف كتاب جمعية أم القرى فقد أطلعنا عليه مرارا . ثم أنه طبع الكتابين المذكورين وقام لهما فى المابين السلطانى ضجة عظيمة وصدرت ارادة السلطان بمنع دخولهما الى الممالك العثمانية . بيد أنه رغما عن ذلك وصلا الى حلب على صورة خفية وقرأناها فى سمرنا المرة بعد المرة . وبلغنا أنه بعد دخوله الى مصر بأيام قليلة التف حوله جماعة من ادباء الأتراك يزعمون أنهم من طائفة جون ترك ، وما هم فى الحقيقة الا جواسيس يراقبون حركاته وسكناته ويكتبون بها الى المابين .

لقى الكواكبى فى مصر اخوانه الأحرار السوريين الذين فروا من قبله الى القاهرة . لقى رشيد رضا الذى جاء من بلدته القلمون من أعمال طرابلس فرارا الى مصر فوصلها قبل الكواكبى بعام

(١٨٩٨م) ليلحق باستاذه ورائده محمد عبده فقد قال له رشيد رضا انى أعاهدكم أن أكون معكم كالمريد مع أستاذه . فوضع محمد عبده له منهاج جريدة واختار له اسمها (المنار) وحذره من الخوض في السياسة ولم يلبث أن صدر عددها الأول فى الشهر التالى لوصوله الى مصر . كذلك التقى الكواكبى بالمرحوم عبد الحميد الزهراوى وهو الذى لعب دورا هاما وكبيرا فى الحركة العربية بعد توليه رئاسة المؤتمر العربى الأول الذى عقد فى باريس سنة ١٩١٣ والذى كان من مقرراته مطالبة جماعة الاتحاد والترقى الحاكمة باعطاء العرب حقوقهم واشراكهم فى الحكم والاعتراف باللغة العربية لغة رسمية . واضطرت الحكومة العثمانية الى الاعتراف ببعض الاصلاحات حتى تهادن هذه الحركة . ثم جاءت نهاية الزهراوى على يد جمال باشا السفاح التركى فى ٦ من مارس ١٩١٦ حين بعث الى كراسى المشنقة برعيل كبير من أحرار العرب .

وأتيحت الفرصة للكواكبى أن يلتقى كذلك بالمرحوم محمد كرد على وابراهيم سليم النجار والشيخ طاهر الجزائرى الذى لعب دورا هاما فى اليقظة العربية فى دمشق . فقد كان يشغل منصب مفتش المعارف فى دمشق فى الوقت الذى كان مدحت باشا حاكما لها وكان عونه الأكبر فى تأسيس جمعية المقاصد الخيرية ثم استبدلت جمعية المقاصد الخيرية بمجلس معارف سنة ١٨٨٢ كان رئيسه العالم محمود أفندى حمزة مفتى دمشق ونائبه الشيخ طاهر الجزائرى . وكانت حلقة التدريس فى دمشق للشيخ طاهر الجزائرى من أشهر حلقات التدريس كان يحضر له دروسه صفوة المتعلمين والنابهين والمفكرين العرب وأقنع طاهر الجزائرى حكام دمشق أثناء ولاية مدحت باشا أن على الحكومة أن تنافس مدارس الارساليات الأجنبية فى تعليم اللغة العربية وأنها اذا لم تقم بذلك تلقى النشء تعليمهم فى مدارس الارساليات

هذه وتلقوا مع تعليمهم مذاهب سياسية معينة تحرص مدارس الارساليات على تلقينها للنشء (١) ٠ لكن جهود الشيخ طاهر الجزائرى الاصلاحية لم تحقق ثمرتها المرجوة بفضل موقف السلطان عبد الحميد من كل جهد اصلاحى فما لبث أن نقل مدحت باشا من دمشق ثم اتهمه بالتآمر على قتل السلطان عبد العزيز وحكم عليه بالاعدام ثم خفف الحكم الى النفى المؤبد حيث قضى بقية أيامه فى الطائف (٢) ٠ وغادر الشيخ طاهر الجزائرى سوريا الى مصر ٠

أخذ الكواكبى يلتقى بكل هؤلاء الاخوة المناضلين رفقائه فى الكفاح فى مقهى سبلنددبار بالقاهرة ٠ كانوا يجتمعون كل مساء وبدأت معارف الكواكبى تزداد ودائرة صلاته تتوسع فاتصل بالمرحوم على يوسف صاحب المؤيد عن طريق السيد رشيد رضا فتمكنت بينهما روابط الصداقة والود ٠ وأخذت جريدتا المؤيد والمنار تفسح له صفحاتهما لنشر مقالاته ٠

واستقر الكواكبى فى القاهرة واتخذ مسكنا له بشارع الامام الحسين بالقرب من الأزهر وأخذ ينشر مقالات عن الاستبداد لا يوقعها باسمه وانما اتخذ لنفسه رمز الرحالة كاف ٠ ولكن الأوساط الأدبية والثقافية عرفت أنه (الكواكبى) صاحب هذه المقالات فأقبلت عليه وعلى مقالاته ٠

ثم كان أن توثقت عرى الصداقة بين الكواكبى والخديو عباس حلمى الثانى ٠ ويبدو أن الكواكبى تعرف بالخديو عن طريق رشيد رضا والشيخ على يوسف فالمرحوم رشيد رضا فى سرده لتاريخ حياته (٣) يقول : كان الخديو عباس يثق بى وكان يستوقفنى

---

(١) مصطفى الشهابى : محاضرات عن القومية العربية ص ٤٩ ـ ٥٢

(٢) احمد امين : زعماء الاصلاح فى العصر الحديث ٠

(٣) رشيد رضا : تاريخ الامام محمد عبده ص ٥٨٠ ٠

كثيرا مع الشيخ على يوسف عند انصراف الناس من المقابلة ويتحدث معنا في بعض الشئون الحاضرة • وأصبحت مأذونا في مقابلة الخديو في أى وقت • ولما علم بأن الشيخ محمد ابا الهدى الصيادى يسعى لمنع مجلة المنار من دخول جميع البلاد العثمانية وأنه يكاتبنى ويحاول اقناعى بترك مصر والذهاب الى الأستانة ويعدنى بالرتب العلمية والوظائف الرسمية كانت هذه المسألة من أهم المهمات عند سموه • أما الشيخ على يوسف فكان أخلص للخديو من مصطفى كامل وكان مواليا للشيخ محمد عبده في الوقت نفسه يخبرهم بجميع أسرار الخديو وما ينكره من أعماله •

والمعروف أن الخديو عباس حلمى الثانى كان يطمع في الخلافة الاسلامية يريد أن يتولاها بدلا من السلطان عبد الحميد وأنه في الفترة التى وصل الكواكبى فيها الى مصر كان على خلاف مع السلطان العثمانى يقرب اليه الأحرار السوريين الذين ناصبوه (السلطان) العداء • نلمس هذا التقارب بين الخديو عباس الثانى والكواكبى ، ونجد ذلك فيما كتبه الكواكبى : من ذلك قوله في مقدمة كتابه طبائع الاستبداد « أننى في سنة ثمانى عشر وثلاثمائة وألف هجرية هجرت ديارى سرحا في الشرق فزرت مصر واتخذتها لى مركزا أرجع اليه مغتنما عهد الحرية فيها على عهد عزيزها حضرة سمى عم النبى (العباس الثانى) الناشر لواء الأمن على أكتاف ملكه •• »

ويتخذ المؤرخون من علاقة الكواكبى بالخديو عباس الثانى دليلا على أن الذى أوعز للكواكبى برحلته التى طاف فيها البلاد العربية هو الخديو نفسه ، وأن هذه الرحلة التى تمت بايعاز الخديو كانت للدعاية له بشأن الخلافة الاسلامية • لكن هذا القول غير ثابت وتعوزه الأدلة المختلفة • ويستند الذين يقولون بأن الكواكبى قام برحلة لحساب الخديو عباس حلمى الثانى أن الصلة

بينهما كانت متينة قوية ، وان الكواكبى أثنى على الخديو ثناء مستطابا • فبالاضافة الى ما ذكرناه للكواكبى فى كتابه طبائع الاستبداد نجده فى كتابه أم القرى يقول :

ان جمعيتنا هذه اختارت أن تجعل مركزها المؤقت فى مصر ، دار العلم والحرية فلها أمل قوى فى أن حضرة العزيز (عباس الثانى) يكون عضدا للقائمين باعزاز الدين ، وخاليا فخريا للجمعية ، ولا بدع فانه خير أمير شاب نشأ على الغيرة الدينية والحمية العربية خصوصا جنابه السامى من آل بيت حازوا بين سائر ملوك الاسلام وأمرائه قصب السبق فى الاطلاع على أحوال الدنيا ، فاجتهدوا فى الترقيات السياسية والعمرانية والعلمية والتنظيمية والمدنية ، حتى أن النهضة العثمانية بكل فروعها مسبوقة فى مصر ومقتبسة عنها ، بل كما يعلم العارفون أنها تقدمت الدولة العلية العثمانية بعض خطوات فى ميدان المدنية والعمران مدفوعة بأيدى المرحومين محمد على وابراهيم وفاضل وكامل وغيرهم من الأمراء حتى والأميرات المصريات ، فما كان رشيد وعالى وفؤاد وكمال ومدحت وعونى وبقية أحرار الأتراك الا وأكثرهم آلات أوجدها ومدها بالقوة هؤلاء العظام ، ولا غرو فقد يحمل الابن أباه على الرشد وان أباه •• »
بينما نجد الأستاذ عباس العقاد فى كتابه الرحالة كاف (عبد الرحمن الكواكبى) ينفى فكرة أن يكون الكواكبى قد قام برحلته للبلاد العربية لحساب الخديو عباس حلمى الثانى • ويقول انه عرف أحد الشيوخ الذين عاشروا الكواكبى وتتبعوا أحوال الزعماء الدينيين فى أيامه خاصة فيما يدور حول العلاقة بين القاهرة والقسطنطينية وبين المهاجرين من بلاد الدولة العثمانية وبين حملة الأقلام والأقطاب المصريين ويقول العقاد ان هذا الشيخ قال له : « ان اناسا من أصحاب الكواكبى كانوا اذا سمعوا عنه أنه يعمل لحساب الخديو ويهيىء الجو فى بلاد العرب لمبايعته بالخلافة تبسموا وقالو : والله

ما يعمل الرجل الا لحساب نفسه . ألا ترونه حريصا على الخلافة العربية القرشية حريصا على النسبة الى قريش فى بيت من بيوت الامارة ؟ »

ويضيف العقاد قائلا ولم أعرف يومئذ موقع الصواب فى هذه المنطقة ، ولكنى قرأت كتب الكواكبى بعد ذلك عن الدعوة فرأيت أن الرجل يدعو الى غاية طويلة الأمد يعلم أنها لا تتم فى حياة فرد واحد ، ويوطن العزائم على ذلك بين قرائه وصحبه ، وهو أحرى أن يضمهم فى سرعة الانجاز وسرعة الجزاء لو كان له مأرب يتعلق به ويعلق به أمال العاملين معه غير مضطرين الى التصريح بمراده . »

ان المسلم بأخلاق الكواكبى والدارس لشخصيته واخلاصه للقضية التى أمر بها وعاش من أجلها ــ وهى حق العرب فى الحياة الحرة الكريمة مستقلين أعزاء كراما على أنفسهم أقوياء مع الحق حربا عوانا على الباطل ، حماة للدين الاسلامى الذى أنزله الله سبحانه وتعالى بين ظهرانيهم ومن أجل هذا فالخلافة الاسلامية من حقهم دون سواهم ــ لا تجعلنا نوافق الرأى القائل بأن الكواكبى كان يعمل لحساب أحد أو داعية بالخلافة لشخص مهما كان هذا الشخص عزيزا له . فمن المعروف أن الكواكبى دعا الى حق العرب وبالذات أهل الجزيرة العربية فى الخلافة الاسلامية وأن يكون الخليفة عربيا قرشيا وهى شروط لا تنطبق على الخديو عباس حلمى الثانى بالطبع .

كذلك يذكر الدارسون لحياة الكواكبى أنه ما ان عاد من رحلته الى البلاد العربية حتى وجد نفسه بدون عمل يسد به نفقته (١) ، ولو أنه كان يعمل لحساب الخديو عباس لما واجه نوعا

---

(١) سامى الدهان : الكواكبى سلسلة نوابغ الفكر العربى ص ٣٠

من الضيق فى معيشته ولأغدق عليه الكثير من الهبات والعطايا ٠

وحالت وفاة الكواكبى المفاجئة بعد رحلته الى البلاد العربيـة دون تدوينه لأخبـــار هذه الرحلة لأن المنية عاجلته بعـدها بثلاثة أشهر ٠ كذلك ينبغى أن نشير الى أن الكواكبى كانت رحلته الى البلاد العربية والاسلامية على مرحلتين أو على فترتين زار فى الرحلة الأولى السودان ووصل الى سواحل افريقيه الشرقية وزار زنجبار والحبشة وعاد بعدها الى مصر ليستأنف رحلته الثانية ٠ والكواكبى ان لم يذكر تفاصيل رحته ذكر أنه زار مصر ثلاث مرات (١) : المرة الأولى كانت حين جاءها من الشام فارا من وجه السلطان عبد الحميد٠ ونشر فى جرائدها مقالاته السياسية تحت عنوان الاستبداد ٠ أما زيارته الثانية فكانت حين قطع جزءا من رحلته وعاد اليها ليستعد لجولته الثانية والأخيرة من رحلته ٠ ثم كانت الزيارة الثـالثة حين انتهت رحلته وعاد الى مصر ليتوفى فيها ٠

زار الكواكبى في رحلته الثـــانية الحجاز وصـحراء الجزيرة العربية واليمن ومنها سار الى الهند ووصل الى ميناء كراتشى حيث عاد على ظهر سـفينة حربية ايطالية بتوجيه من وكيـل ايطاليـا السياسى فى مسقط طافت به سواحل بلاد العرب وسواحل أفريقية الشرقية ٠ وعاد الكواكبى من هذه الرحلة بمعلومات وافرة عن حالة البلاد الزراعية والمعدنية حتى انه استحضر نماذج المعادن من تلك الأصقاع ٠

وكان الكواكبى يتمنى لو أتيحت له زيارة بلاد المغرب العربى يتمم بها اختباره للمسلمين ولكن المنية حالت دون ذلك ٠

كذلك قيل ان ايطاليا هى التى يسرت للكواكبى رحلته لأنها كانت تطمع فى نجاح المسعى بخلع الخلافة الاسلامية من تركيا وأنها

---

(١) الكواكبى : طبائع الاستبداد ص ١٠ طبعة حلب سنة ١٩٥٧ ٠

(ايطاليا) كانت تطمع فى بسط نفوذها الاستعمارى على شواطئ البحر الأحمر . ويستند أصحاب هذه الرواية على اجتماع الكواكبى أثناء رحلته بالقنصل الايطالى فى الحديدة باليمن وبتنقله على ظهر سفينة حربية ايطالية كانت به سواحل الجزيرة العربية بتوصية من وكيل (معتمد) ايطاليا السياسى فى مسقط .

لكن الملم بأخلاق الكواكبى ومبادئه التى عاش من أجلها ومات وهو يجاهد فى سبيل تحقيقها لا يؤيد الرأى القائل بأن الكواكبى يقبل أن يكون عميلا لدولة أجنبية وأنه كان يصدر فيما يقول عن ايمان خالص بحق أمته العربية ومكانتها التى ينبغى أن تتبوأها .

ويواجه المؤرخ لحياة الكواكبى قلة المعلومات أو ندرتها عن رحلته الهامة التى طاف فيها البلاد العربية وعمن قابلهم فيها وعن انطباعاته وتواريخ زيارة كل قطر والمدة التى أقامها فيه الى آخره . لكن عذرنا فى ذلك كما هو عذر كل المتصدين لحياة الكواكبى بالدراسة أنه كان بصدد كتابة وصف لرحلته والتى كان بنيته أن يفرد لها كتاب بأكمله لولا أن المنية عاجلته فتوفى مساء الخميس الرابع عشر من يونيو ١٩٠٢ الموافق الخامس من ربيع الأول سنة ١٣٢٠ هـ .

وكان الكواكبى قد اعتاد كل مساء أن يجتمع باخوانه وأصدقائه فى أحد المقاهى وفى اليوم الذى وافته المنية فيه جلس فى مقهى يلدز قرب حديقة الأزبكية وكان معه يومها الأستاذ رشيد رضا ومحمد كرد على وابراهيم سليم النجار . وشرب الكواكبى القهوة كالمعتاد وأحس بعدها بألم فى أمعائه فقام ابنه كاظم بنقله الى منزله حيث أصابته نوبة قلبية توفى على أثرها وعمره آنذاك خمسون عاما .

وقال رشيد رضا وهو يؤرخ للسيد جمال الدين الأفغانى

أنه شاع أنه مات مسموما مثلما شاع ذلك فى موت الأستاذ الامام السيد عبد الرحمن الكواكبى • وذهب البعض الى أن السلطان عبد الحميد هو الذى دبر ذلك له ، وان كان هذا القول تعوزه الأدلة الكثيرة •

وهناك رواية مختلفة بعض الشيء عن وفاته يرويها الأستاذ محمد كرد على فيقول عن الكواكبى : جاء لى ذات ليلة يسمر معى فى دارى مع الحبيب رفيق بك العظم يستشيرنى فى أمر عظيم • قال : ان الخديو عباس عرض عليه أن يصحبه الى الاستانة ويستجلب رضاه عنه ، وبذلك تنحل هذه المشادة ويطمئن خليفة الترك اليه • فصعب على وعلى رفيك بك ابداء رأى فى موضوع جد خطير كهذا ، لأن ابن عثمان لا تأخذه هوادة فيمن خرجوا على سلطانه ، وخشينا أن تكون هناك دسيسة يذهب الرجل ضحيتها • ومما قال لنا أنه حائر فى أمره بين القبول والرفض وأنه شعر بالأمس بوجع فى ذراعه وما عرف له تعليلا • وتقوض المجلس وذهب السيد الكواكبى الى داره • فما هى الا ساعة وبعض ساعة حتى سمعت ابنه السيد كاظم فى الباب يبكى وينوح ويقول : قم ياكرد على فان صديقك أبى قد مات • »

وسواء أصدقت الرواية الأولى أو الثانية فان الكل متفق على تاريخ وفاته وهو الرابع عشر من يونيو ١٩٠٢ وما ان علم الخديو عباس بوفاته (١) حتى أمر أن يدفن على نفقته الخاصة ودفن فى

(١) يقول الغزى فى مجلة الحديث سنة ١٩٢٩ العدد ٦ أخبرنى ابن خالتى الشيخ صالح عيسى وهو رجل موصوف بالصدق والامانة ان الخديو عباس حلمى الثانى دعا الكواكبى لزيارته بالاسكندرية فلبى الكواكبى الدعوة ثم عاد الى القاهرة ليسهر معنا فى مقهى استانبول مع جماعة من أدباء مصر ولما انصرفنا جاء ابنه كاظم يقول ان أخاك والدى مات فدهشت من هذا الخبر المفاجيء وفحصه الاطباء من قبل الخديو فوجدوا أنه فارق الروح وشيعت جنازته على نفقة الخديو•

باب الوزير . ثم نقلت مقبرته فى نهاية شارع العفيفى بمنطقة باب الوزير وعليها بيتين لشاعر النيل حافظ ابراهيم :

هنـا رجل الدنيـا هنا مهبط التقى
هنا خير مظلـوم هنـا خير كاتب

قفوا واقرءوا أم الكتاب وسـلموا
عليـه فهـذا القبر قبـر الكواكبى

ونعاه كل مخلص من أبنـاء هـذه الأمة العربية وصـدرت الأهرام والمؤيد واللواء تبـكى الخسـارة الكبرى التى ألمت بالأمة العربية لوفاته وأشاد الجميع بفضله ودوره وسيظل التاريخ يذكر اسمه كعلم من أعلام هذه الأمة العربية الخالدة أدى دوره كأحسن ما يكون الأداء وذهب للقاء ربه راضيا عنه سعيدا به لأنه كان رجلا بارا بدينه وفيا لقومه وأمته مخلصـا لمبادئه نزيها أبى النفس . ولا يستطيع باحث فى اليقظة العربية الحديثة أن يتجاهل دوره أو يغمضه حقه لأن دوره وحقه أعظم من أن ينكرا أو يهملا وشأنهما .

الفصل الرابع

دور الكواكبى فى اليقظة العربية

من المعروف أن حركة النهضـة العربية فى العصر الحديث بدأت فى أول أمرها فى صورة بعث للأدب العربى · ولقد شهدت بلاد الشـام منذ منتصف القرن التاسـع عشر حركة احياء اللغة العربية وآدابها وهى الحركة التى بدأت على يد المسيحيين العرب فى هذه البلاد · ذلك ان بلاد الشام كانت مركزا للارسـاليات التبشيرية المسيحية التى قام بها المستشرقون الأوربيون · ومن المعروف أن فرنسا كانت أسبق الدول فى هذا المجال وأنها بدأت نشاطها فى بلاد الشام قبل الحكم المصرى لهذه البلاد بفترة طويلة من الزمان · فكانت سـوريا ولبنان موضع اهتمام البعثات الدينية الفرنسية · وأنشأ اليسوعيون الفرنسـيون فى لبنان أول مركز للثقافة الفرنسـية وهى المدرسة التى أنشئوها فى عينطوره (١) سنة ١٧٣٤ ميلادية كما انشأوا مدرسة فى زغرتا وقد تعلم فيها أجيال من شباب الموارنة ومنهم من أتم دراسته فى الكلية الشرقية بروما وبمدارس فرنسا · ومن ثم كانت الموارنة أكثر الطوائف اتصالا بالحضارة الغربية وكان لهم فضل تعريف مواطنيهم بنماذج من الثقافة الغربية التى كانت سائدة فى ذلك الوقت · (٢)

---

(١) د· مصطفى الخالدى وعمر فروخ ـ التبشير والاستعمار ص ١١

(٢) من أراد التفصيل عليه الرجوع الى تاريخ سوريا ليوسف الدبس ص ٦٠٠ الجزء الرابع من المجلد الثامن ·

ومما ساعد فى حركة النهضة العربية نقل الطباعة التى بدأت فى أوربا وفى ايطاليـا الى بلاد الشرق • وكانت مطبعة الاستانة العبرية أول مطبعة أنشئت بالشرق • وبدأت أول مطبعة تنشـأ بالشام تطبع الكتب العبرية وهى مطبعة دير فرحيا جنوب طرابلس فى أوائل القرن السـابع عشر طبع فيهـا كتاب المزامير باللغتين السريانية والعبرية • ثم أنشئت أول مطبعة عربية بحلب فى أوائل القرن الثامن عشر انشأها بطريريك انطاكية وكانت أول مطبوعاتها كتاب فى الطقوس الدينية (١) •

كذلك بذل المبشرون الأمريكيون وهم البروتسـتانت دورهم فى حركة الاهتمام بالتعليم والاهتمام بالتراث العربى كسبيل الى تدعيم نفوذهم ومنافسة المبشرين الفرنسـين وغيرهم من الجزويت والكاثوليك • وفتح المبشرون الأمريكيون مدارس مختلفة فى بلاد الشام • فسواء صح ما نقل عن الدكتور كورنيليوس فان ديك المبشر الأمريكى المشهور من أنه ركب يوما حماره متوجها الى احدى القرى ليفتح مدرستين ، فاستغرب القروى وقال هل قريتنا الصغيرة بحاجة الى مدرستين • فأجابه الدكتور قائلا : حيث يذهب الدكتور فان ديك يتبعه الجزويت • سواء صحت هذه الرواية أم لم تصح ، فانها تصور واقع الحال فى شدة التنافس بحيث يفتح المرسـلون الأمريكيون مدرسة يتبعهم المرسلون اليسوعيون بفتح مدرسة أخرى فى نفس المكان • ومن أهم ما فتحه فى بلاد الشام الكلية السورية البروتستانتية التى كانت نواة الجامعة الأمريكية فى بيروت الى جانب ما أنشأوه من مدارس فى زحلة ودمشق وحلب وغيرها • لكن أهم من فتح المدارس كان التأثير الذى تركه الغرب على مجتمع هـذه

---

(١) ارجع الى تاريخ الصحافة العربية للفيكونت فيليب دى طرازى وتاريخ الطباعة فى الشرق العربى لخليل صابات •

الطوائف المسيحية · لقد وجدت لديهم رغبة قوية فى أن يقتبسوا أسلوب الغرب ونظمه وتقاليده وبدا ذلك بشكل واضح لدى المسيحيين فى لبنان الذين بدأ أكثرهم فى الهجرة الى أمريكا · ثم كان أن أدى ازدياد التجارة من الشرق وأوربا وأمريكا الى خلق طبقة جديدة بين أفراد هذه الأقليات طبقة برجوازية فى المدن الكبرى من المسيحيين السوريين · الأرمن ، اليهود وهى طبقة تختلف عقلياتها وتفكيرها عن مسيحى الشرق المقيمين فى القرى · والذين كانوا مجتمعات مغلقة على نفسها · بدأ هؤلاء البرجوازيون يقتبسون أساليب الحياة الأوربية ولم يكن لهؤلاء المسيحيين ولاء بالطبع للدولة العثمانية ولا لمجتمعاتهم التى نشأوا فيها بقدر ما اتجه ولاؤهم لأوربا يقلدون أسلوب الحياة الأوربية ويتحمسون فى اخلاص لهذه الحكومات الأجنبية الذين ارتبطوا بها ارتباط حب ومنفعة ·

وبدأت الثقافة الأوربية تترك بصماتها فى الشرق العربى عن طريق الرحلات والهجرة والمدارس والتجارة · وكان من شأن ذلك أن تزداد الهوة بين المسلمين وبعض المسيحيين واليهود المتعصبين للثقافة الغربية من جانب آخر · وكان اقتباس هؤلاء المسيحين واليهود للغات الغربية ولأسلوب تفكير وتقاليد وعادات الغرب ذات أهمية كبيرة بالنسبة للحكومات الغربية والشركات التجارية التابعة لها التى كانت بحاجة ماسة الى استخدام أفراد هذه الأقليات فى الوظائف الصغرى لديها وكان ذلك مدعاة أيضا لحقد وتشكك بعض زملائهم من المسلمين · (١)

واذا كانت الفتنة الكبرى التى شهدتها لبنان وسوريا سنة ١٨٦٠ بين النصارى والدروز والتى لا يمكن انكار وجود عوامل

---

(١) Hourani: Minorities in the Arab World, p. 26.

كذلك ينبغى الرجوع الى كتاب الاستاذ ساطع الحصرى : محاضرات فى نشوء الفكرة القومية ص ١٨٤ وما بعدها ·

خارجيـــة فى اشعالها قد جاءت نتيجـــة لتعصب ممقوت من جانب البعض ، فان أنظار المستنيرين من المسـيحيين من أبنـــاء الشعب العربى قد وجهت اهتمامها للقضاء على هذا التعصب ومحو آثاره ٠ وهنا يبرز دور كل من نصيف اليازجى وبطرس البستانى ٠ أخذ نصيف اليازجى يدعو الى بعث الأدب العربى القديم وكان يعتقد أن ذلك ينبغى أن تكون مهمة المثقفين العرب الأولى ٠ ومما يسـتدعى الانتباه فى هذه الدعوة أنها كانت موجهة الى جميع العرب النصارى منهم والمسلمين وأنها كانت تناشـدهم جميعا ان يذكروا ويهتموا باحياء تراثهم المشترك ٠

كذلك برز البستانى (١٨١٩ ـ ١٨٨٣) كأحد الشخصيات العربية التى لعبت دورا مهمـا فى ذلك الحين ٠ كان بطرس هو الآخر عربيا مسيحيا من لبنان تلقى حظا من التعليم أكثر مما تلقاه نصـــيف اليازجى وأقام فى بيروت حيث ترجم الكتاب المقدس الى اللغة العربية ٠ وساعده اتصاله بالمبشرين الأمريكيين والعمل معهم الى اتقان اللغة الانجليزية وعمل بالتعليم فى مدارسهم ومما يذكر له بالفضل عملان عظيمان هما اصداره معجم اللغة العربية نشره ســنة ١٨٧٠ بعنـوان محيط المحيط ثم أعـد موجزا له أســـماه قطرا المحيط ٠ أما عمله الثانى فهو اصداره دائرة معارف عربية للمعارف أكمل منها ستة أجزاء وقام أبنـاؤه وأحفـاده وبعض أبناء اسرته باتمامها بعد وفاته فكان مجموع ما صدر أحد عشر جزءا ٠ كذلك حارب البسـتانى التعصب الدينى وانشـأ هو ونصيف جريـدة أسبوعية أسمياها نفيرسوريه سنة ١٨٦٠ كان هدفها الدعوة الى الوفاق بين سكان البلاد من مختلف الطوائف على أثر وقوع مذابح سنة ١٨٦٠ ٠ كان البستانى يؤمن ان المعرفة تؤدى الى انارة الذهن والتنور يقضى على التعصب ٠ وبعد مرور ثلاث سنوات انشأ مدرسة أطلق عليها اسم المدرسة الوطنية غايتها تحقيق الهدف ذاته عن

طريق تربية الطلاب من مختلف الطوائف على أساس التسامح والمثل العليا الوطنية ٠ وبعد أن نشر معجمه فى اللغة العربية انشأ سنة ١٨٧٠ مجلة سياسية وادارية اسماها (الجنان) تصدر مرة كل أسبوعين وتسعى الى تحقيق الهدف ذاته عن طريق مكافحة التعصب واتخذ لمجلته شعار حب الوطن من الايمان ٠

ويمكن أن نصنف اتجاه المسلمين العرب على هذا النحو : كان هناك بعض المسلمين المتعصبين الذين يكرهون الحضارة الغربية لأنها مسيحية ولأنها تهدد بالقضاء على عالمهم القديم ٠ وكان هناك من يعترف بقيمة هذه الحضارة الغربية وتقاليدها وضرورة الاقتباس منها لكنهم يرغبون فى الاحتفاظ بحضارة الاسلام وتقاليده الرائعة فالمشكلة بالنسبة لهؤلاء كانت مشكلة ادخال روح المدنية الحديثة وايقاظ المسلمين من سباتهم العميق ليلحقوا بركب الحضارة الذى سبقتهم فيه الأمم الأخرى والذى كان ينبغى أن يكونوا (المسلمون) هم روادها وقادتها كشأنهم فى سالف الأزمان ٠

وهنا يبرز دور ثلاثة من رواد الفكر الاسلامى الأفغانى ، محمد عبده ، الكواكبى ٠ فمما لا شك فيه أن وصول السيد جمال الدين الأفغانى الى مصر مارس ١٨٧١ واقامته فيها حوالى ثمان سنوات (أغسطس ١٨٧٩) كانت من خير السنين بركة على مصر والعالم الاسلامى ٠ يقول الأستاذ أحمد أمين فى كتابه زعماء الاصلاح فى العصر الحديث : ثمانى سنين كانت من خير السنين بركة على مصر والعالم الشرقى لا بما أفاد جمال مظهرها وحسن رونقها وسعادة أهلها ولكن لأنه كان يدفن فى الأرض بذورا تتهيأ فى الخفاء للنماء ، وتستعد للظهور ثم الازدهار فما أتى بعدها من تعشق للحرية وجهاد فى سبيلها فهذا أصلها وان وجدت بجانبها عوامل أخرى ساعدت عليها وزادت فى نموها ٠ وخشى الخديو توفيق مما يدعو له السيد الأفغانى فصدر قراره بتركه لمصر ٠ فلما

كانت الثورة العرابية نقلته حكومة الهند من حيدر أباد الى كلكتا وألزمته الاقامة فيها مخفورا مراقبا حتى انتهت الثورة بالاحتلال الانجليزى لمصر • وغادر الأفغانى الهند الى لندن سنة ١٨٨٣ لكنه لم يطل الاقامة فيها فسافر منها الى باريس وكتب الى تلميذه وصديقه الشيخ محمد عبده ليوافيه بها من منفاه فى بيروت حيث أصدرا جريدة العروة الوثقى يبغيان نشرها فى العالم الاسلامى لتفهيم أبنائه حقوقهم وواجباتهم • لكنهما يخشيان أن يفهما من مخاطبتهما المسلمين انهما يدعوان الى اثارة الشقاق بينهم وبين أبناء الأديان الأخرى فى الأقطار الاسلامية فهما يقولان : لا يظن أحد من الناس أن جريدتنا هذه بتخصيصها المسلمين بالذكر أحيانا ومدافعتها عن حقوقهم تقصر الشقاق بينهم وبين من يجاورنهم فى أوطانهم ويتفق معهم فى مصالح بلادهم ويشاركهم فى المنافع من أجيال طويلة ، فليس هذا من شأننا ولا بما ندعو اليه ولا مما يبيحه ديننا ، ولا تسمح به شريعتنا • ثم صدر العدد الأول من هذه الجريدة فى ١٥ جمادى الأول سنة ١٣٠١ هـ (١٣ مارس ١٨٨٤م)
وقد تضمن منهاج الأفغانى ومحمد عبده فى الاصلاح • بلغ الاجحاف بالشرقيين غايته ووصل العدوان فيه نهايته ، وأدرك التغلب منهم نكايته خصوصا فى المسلمين منهم ، منهم ملوك انزلوا عن عروشهم جورا وذوو حقوق حرموا حقوقهم ظلما وأعزاء باتوا أذلاء وأجلاء أصبحوا حقراء وأغنياء امسوا فقراء ، وأصحاء أضحوا سقاما ، وأسود تحولوا أنعاما ولم تبق طبقة من الطبقات الا وقد مسها الضر من افراط الطامعين فى أطماعهم خصوصا من جراء هذه الحوادث التى بذرت بذورها فى الأراضى المصرية من نحو خمس سنوات بأيدى ذوى المطامع فيها •• ان الحالة السيئة التى أصبحت فيها الديار المصرية لم يسهل احتمالها على نفوس المسلمين عموما ، ان مصر تعتبر عندهم من الأراضى المقدسة ولها فى قلوبهم منزلة لا يحلها

سواها قطر نظرا لموقعها من الممالك الاسلامية ولأنها باب الحرمين الشريفين .. ان الخطر الذى ألم بمصر نفرت له أحشاء المسلمين وتكلمت به قلوبهم ولن تزال آلامه تستنفرهم ما دام الجروج نفارا . (١)

ثم يمضي العدد الأول من هذه الجريدة يوضح أهداف جمعية العروة الوثقى السرية السياسية التى ضمت الى عضويتها (عقلاء الأمة وحولت أنظارهم لما سيكون من عاقبة أمرهم مع ملاحظة العلل التى أدت بهم الى ماهم فيه ... وكتبوا على أنفسهم النظر فى أمر السلطة العامة الاسلامية وفروض القائم بها . وبما أن مكة المكرمة مبعث الدين ومناط اليقين وفيها موسم الحجيج فى كل عام يجتمع اليه الشرقي والعربى ويتآخى فى مواقعها الطاهرة الجليل والحقير والغنى والفقير ، كانت أفضل مدينة تتوارد اليها أفكارهم ثم تنبث الى سائر الجهات .

ومن الواضح أن الأفغانى يتشابه فى هذه الناحية مع الكواكبى فى جمعيته التى تخيل عقدها فى مكة أم القرى لتقصى مظاهر الضعف عند المسلمين ووصف الدواء بعد تشخيص الداء .

كذلك نجد الأفغانى يضع بعض المبادىء التى يراها لازمة لاصلاح احوال المسلمين شبيهة بما نادى به الكواكبى فجريدة العروة الوثقى تلخص أهم أغراضها فى نفس عددها الأول فيما يأتى :

١ - بيان الواجبات على الشرقيين التى كان التفريط فيها موجبا للسقوط والضعف وتوضيح الطرق التى يجب سلوكها لتدارك ما فات .

---

(١) رشيد رضا : تاريخ الامام محمد عبده ج ١ ص ٢٩٥

٢ — اشراب النفوس عقيدة الأمل فى النجاح وازالة ما حل بها من اليأس ٠

٣ — دعوتهم الى التمسك بالأصول التى كان عليها أباؤهم وأسلافهم وهى ما تمسكت به الدول الأجنبية العزيزة الجانب ٠

٤ — اندفاع عما يرمى به الشرقيون عموما والمسلمون خصوصا من التهم وابطال زعم الزاعمين ان المسلمين لاينعدمون فى المدنية ماداموا متمسكين بأصول دينهم ٠

٥ — أخبار الشرقيين بما يهمهم من حوادث السياسة العامة والخاصة ٠

٦ — تقوية الصلات بين الأمم الاسلامية وتمكين الألفة بين أفرادها وتأمين المنافع المشتركة بينها ومناصرة السياسة الخارجية التى لا تميل الى الحيف والاجحاف بحقوق الشرقيين ٠

أراد الأفغانى ان يدعو الى اصلاح المسلمين دينيا واجتماعيا وسياسيا اذ كان المثل الأعلى له حالة المسلمين فى عهد الخلفاء الراشدين من حيث العقيدة والصفات الخلقية والنظام السياسى فيرى أنهم كانوا موحدين حقا معتزين بدينهم ، لاتفرقهم المذاهب والنحل مترابطين برباط الأخوة فيهم خلق الآباء والشمم ، يبذلون أعز شيىء فى سبيل عقيدتهم وعزتهم ينشرون بينهم العلم ما استطاعوا ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وتلك كانت نفس ما تمناه الكواكبى ورغب فى تحقيقه كما يتضح ذلك من كتابه جمعية أم القرى على نحو ما سنوضحه ٠

ثم يحمل الكواكبى على عقيدة الجبر والخطأ بنفس العنف الذى حمل به الافغانى على الجبرية فى جريدة العروة الوثقى ٠ فالأفغانى يرى أن الفساد دخل على توالى الزمن من خمسة أبواب من عقيدة

الجبر والخطأ فى فهم القضاء والقدر حتى صرفت النفوس عن الجد فى الأعمال ومما أدخله الزنادقة على تعاليم الاســـلام فى القرنين الثالث والرابع الهجريين فجعلوا المسلمين شيعا وأحزابا وأضعفوا قوة الدين بما أدخلوه من تعاليم فاسدة ومما أحدثه السوفسطائيون من أفكار ، وعدهم الحقائق خيالات تبدو للنظر ومما عمله كذبـــة المحدثين من وضع أحاديث ينسبونها الى رسول الله وفيها السم القاتل لروح العمل والاباء وفيها ما يستوجب ضعفا فى الهمم وفتورا فى العزائم .

فاذا نظرنا الى كتاب أم القرى نجد الكواكبى يحمل على عقيدة الجبر والقدرية هو الآخر . فالكواكبى يصدر عقيدة الجبر وتأثيرها على أفكار الأمة فى الاسباب الدينية التى أضعفت المســـلمين ويخصص بحثها فى أول اجتماع تعقده جمعيته فى مكة بعد اجتماعها الاول التمهيدى . فيقول على لسان العضو الشامى (انى أرى منشأ هذا الفتور هو بعض القواعد الاعتقادية والأخلاقية مثل العقيدة الجبرية التى من بعد كل تعديل فيها جعلت الأمة جبرية باطنا قدرية ظاهرا) (١) .

كذلك نجد تشابها بين الأفغانى والكواكبى فى تأكيد كل منهم على أهمية اللغة العربية والمحافظة على اللســـان العربى . فالأفغانى يقول ان عقلاء الأمة لبحث أحوال المسلمين اختاروا ان يكون لهم فى هذه الأيام جريدة بأشرف لسان عندهم وهو **اللسان العربى** ويؤيد فى مجالسه بيان الخطر مما تسعى اليه الأمم الأجنبية فى الشرق من اضعاف اللغة القومية وقتل التعليم القومى والتغيير من آداب الأمم الشرقية لتحل محلها لغتها وآدابها « مع أنه لا جامعة لقوم لا لســـان لهم ، ولا لسان لقوم لا آداب لهم ولا عز لقوم

---

(١) الكواكبى : أم القرى ص ٢٣ طبعة المكتبة التجارية سنة ١٩٣١م

لا تاريخ لهم ، ولا تاريخ لهم اذا لم يقم منهم من يحيى آثار رجال تاريخهم فيعمل عملهم وينسج على منوالهم . »

وينفي الأستاذ رشيد رضا عن الأفغانى كونه يريد جامعة اسلامية يكون المسلمون كلهم دولة واحدة ويروى عن الأفغانى ما كتبه فى مقاله بعنوان (الوحدة الاسلامية) التى نشرت فى العدد التاسع من العروة الوثقى « لا ألتمس بقولى هذا أن يكون ملك الأمر فى الجميع شخصا واحدا فان هــذا ربمــا كان عسيرا ولكنى أرجو أن يكون سلطانهم جميعهم القرآن ووجهة وحدتهم الدين ، وكل ذى ملك على ملكه يسعى بجهده لحفظ الأمر ما استطاع فان حياته بحياته وبقاءه ببقائه ... » ويخلص الأستاذ رشيد رضا من ذلك الى القول أنه (الأفغــانى) كان يكتفى بالوحدة الدينية وعقد المحالفات بين الدول الاسلامية (كالترك والفرس والأفغان ..) ثم الاعتراف لأقواهن برياسة الحلف (١) .

ومن هنا يختلف الكواكبى عن الأفغانى ، فالكواكبى كان داعية للقومية العربية يرى أن تكون قيادة الأمة الاسلامية للعرب مثلما كان لهم هذا الأمر فى سالف الزمان بل هو يحصر الخلافة الاسلامية فى عرب الجزيرة بالذات على نحو ما جاء فى كتابه أم القرى . فالكواكبى يرى ان الدور الذى لعبه العرب فى العــالم الاسلامى بلغتهم وانتسابهم الى صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم ووجود الحرمين الشريفين فاذا كان على العالم الاسلامي أن يقف فى جبهة واحدة فلابد ان تكون القيادة عربية وان يكون مركزها أم القرى لا اسطنبول .

ونحن لانتفق مع الرأى القائل بأن الكواكبى اختلطت عنده

---

(١) رشيد رضا : تاريخ الامام محمد عبده ج ١ ص ٣٢٥ وما بعدها .

الفكرة الاسلامية بالفكرة العربية القومية (١) فالكواكبي يميز في وضوح بين الشعوب العربية والشعوب الاسلامية غير العربية يرى للأولى الزعامة على الثانية • وهو يرى ان أحد أسباب فشل الاتراك العثمانيين أنهم لم يستعربوا وليس هناك من سبب لذلك سوى كرههم للعرب واطلاقهم اسماء ونعوت تحمل الحقد والكراهية مثل (يس عربى) أى عربى قذر و (ويلنجى عرب) أى عرب شحاذين• والعرب لا يقابلونهم فى كل ذلك سوى بكلمتين الأولى هى قول العرب فيهم : ثلاث خلقن للجور والفساد القمل والترك والجراد ، والكلمة الثانية تسميتهم بالأروام كناية عن الريبة فى اسلامهم •

وأهمية دعوة الكواكبى أنه لم يتفق مع القائلين بتقوية الرابطة مع الدولة العثمانية على أساس أنها دولة الخلافة الاسلامية فأوضح الكواكبى أن احترام الشعائر الدينية فى أكثر ملوك آل عثمان هى ظواهر محضة وليس من غرضهم ولا من شأنهم أن يقدموا الاهتمام بالدين على مصلحة الملك ، وان الدين الاسلامى قد أصبح فى حاجة ماسة الى من يرعى شئونه بتعيين خليفة آخر غير الخليفة العثمانى وينبغى ان يكون هذا الخليفة عربيا قرشيا كما كان فى صدر الاسلام • ولايريد أن ينفرد هو بهذا الرأى فيراه يصدره عن جمعية تمثل المسلمين فى كل قطر ذلك هى جمعيته التى اسماها جمعية أم القرى •

ففى الوقت الذى كان الأفغانى يرى اصلاح أحوال المسلمين على يد الدولة العثمانية كان الكواكبى يحمل حملة شعواء على الاتراك فهم لم يحترموا شعائر الدين وليس من غرضهم بل ولا من شأنهم ان يقدموا الاهتمام بالدين على مصلحة الملك • ثم نجده يسرد كثيرا من أعمالهم السيئة تجاه المسلمين ، فأقول هذا السلطان

(١) محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربى ص ٢٦٩

محمد الفاتح وهو أفضل آل عثمان قد قدم الملك على الدين فاتفق سرا مع فردينـــاند ملك (الاراغون) الاسبانيولى ثم مع زوجتـه ايزابيلا على تمكينهما من ازالة ملك بنى الأحمر آخر الدول العربية في الاندلس ورضى بالقتل العام والاكراه على التنصر . وهـــذا السلطان سليم غدر بآل العباسى واستقصاهم حتى انه قتـــل الأمهـــات لأجل الأجنة وبينما كان يقتل العرب فى الشرق كان الاسبانيون يحرقون بقيتهم فى الاندلس وهذا السلطان سليمان ضايق ايران حتى ألجأهم الى اعلان الرفض المكفر .. وقد سعوا في انقراض خمس عشرة دولة وحكومة اســـلامية منهـا أنهم أغروا وأعانوا الروس التتـــار المســلمين وهولانده على الجاوة والهنـــديين وتعـــاقبوا على تدويخ اليمن فأهلكوا الى الآن عشرات المـلايين من المسلمين يقتلون بعضهم بعضا لايحترمون فيما بينهم دينا ولا أخوة ولا مروءة ولا انسانية حتى ان العسكر العثمانى باغت المسلمين مرة فى صنعاء وهم فى صلاة العيد .. »(١)

ونجـد الأفغاني يندد بالســـياسة الأوربية تجـاه المسلمين ويصب عليها جام غضبه حتى ان حملته على السياسة الانجليزية استغرقت أكبر قسم فى العروة الوثقى فهو يرى ان حركة الاستعمار الأوربى حركة دينية نصرانية موجهة ضد الاسلام وقد قدم مؤلف كتاب حاضر العالم الاسلامى للعلامة الأمريكى لوثروب ستوردارد والذى ترجمه الى العربية الأستاذ عجاج نويهض وعلق عليه وكتب مقدمته الأستاذ شكيب أرسلان ـ ملخصا لدعوة الأفغانى وفكره على النحو التالى : العالم النصرانى على اختـــلاف أممه وشعوبه عرقا وجنسية هو عدو مقاوم مناهض للشرق على العموم وللاسلام على الخصوص ـ فجميع الدول النصرانية متحدة معا على دك الممالك الاسلامية ما استطاعت الى ذلك سبيلا . الروح الصليبية لم تبرح

(١) الكواكبى : أم القرى طبعة المكتبة التجارية سنة ١٩٣١ ص ٢٠٤

كامنة فى صدور النصارى كمون النار فى الرماد روح التعصب لم تنفك حية معتلجة فى قلوبهم حتى اليوم ... جميع هذا يوضح ان العالم الاسلامى يجب عليه ان يتحد اتحادا دفاعيا عاما مستمسك الأطراف وثيق العرى ليستطيع بذلك الذود عن كيانه ووقـــاية نفسه من القضاء المقبل . وللوصول الى هذه الغاية الكبيرة انما يجب عليه اكتفاء تقدم الغرب والوقوف على تقدمه وقدرته .(١)

واذا كانت تلك دعوة الأفغانى وذلك هو مذهبه فان الكواكبى يركز على السياسة العثمانية التى اكتوى بها والتى رآها سببا فى هضم حقوق العرب فى المناصب والارتزاق من بيت المال هضما لا نسبة فيه حال كونهم ثلثى رعية الدولة العثمانية . كما حمل الكواكبى على الدولة العثمانية تمسكها بأصول الادارة المركزية مع بعد الأطراف عن العاصمة وعدم وقوف رؤساء الادارة العثمانية على أحوال تلك الأطراف ثم هو ينكر على سلاطين بنى عثمان تلقبهـــم بألقاب الخلافة الاسلامية ثم يضع فى ختام جمعيته التى تخيـــل عقدها فى مكة شروطا من أربعة عشر بندا لاختيار الخليفة الجديد للمسلمين بدلا من السلطان العثمانى ويضع فى أول هذه الشروط ان يكون الخليفة عربيا قرشيا .

ومن هـــذه الناحية يبرز دور الكواكبى فى اليقظة العربية الحديثة فهو أول كاتب مسلم دعا العرب الى قطع علاقتهم بالعثمانيين واستنهض همم قومه وبلغ تحمســـه ان بلغ أســـلوبه فى بعض الأحيان منتهى الشدة والتقريع كقوله :

ياقوم ينازعنى والله شعور هل موقفى هذا فى جمع حى أحييه بالسلام أم أنا أخاطب أهل القبور فأحييهم بالرحمة . ياقوم لستم بأحياء عاملين ولا أموات مستريحين بل أنتم بين بين .

---

(١) حاضر العالم الاسلامى تأليف لوثروب ستوردارد ــ مترجم .

يا قوم علكم الله من المهتدين كان أجدادكم لا ينحنون الا ركوعا لله وأنتم تسجدون لتقبيل أرجل المنعمين ولو بلقمة مغموسة بدم الاخوان . وأجدادكم ينامون الآن في قبورهم مستوين أعزاء وأنتم أحياء معوجة رقابكم أذلاء .

ياقوم الهمكم الله الرشد متى تستقيم قاماتكم وترتفع من الأرض الى السماء أنظاركم وتميل الى التعالى نفوسكم فيستقل كل انسان منكم بذاته ويملك ارادته (١) .

ويخطىء من يصف الكواكبى أنه كان كاتبا اسلاميا متعصبا لدينه فهو يخاطب قومه من غير المسلمين بقوله :

يا قوم واعنى بكم الناطقين بالضاد من غير المسلمين ، أدعوكم الى تناسى الاساءات والأحقاد وما جناه الآباء والأجداد ، فقد كفى ما فعل ذلك على أيدى المثيرين ، وأجلكم من أن لا تهتدوا لوسائل الاتحاد وأنتم المتنورون السابقون فهذه أمم اوستريا وأمريكا قد هداها العلم لطرائق شتى وأصول راسخة **للاتحاد الوطنى دون الدينى** والوفاق الجنسى دون المذهبى ، والارتباط السياسى دون الادارى . فما بالنا نحن لا نفتكر فى ان نتبع احدى تلك الطرائق أو شبهها . فيقول عقلاؤنا لمثيرى الشحناء من الاعجام والأجانب: دعونا يا هؤلاء نحن ندبر شأننا ، نتفاهم بالفصحاء ونتراحم بالأخاء ، ونتواسى فى الضراء ونتساوى فى السراء . دعونا ندبر حياتنا الدنيا ونجعل الأديان تحكم فى الأخرى فقط . دعونا نجتمع على كلمات سواء ألا وهى : **فلتحيا الأمة فليحيا الوطن** فلنحيا طلقاء أعزاء . »

وواضح مما أوردناه من كلام الكواكبى أنه يدعو لوحدة قومية

---

(٢) الكواكبى : طبائع الاستبداد ص ١٣٩ وما بعدها .

عربيـة لا يكون فيهـا الدين مجالا لتنازع أو تحاسد أو تباغض فالدين عنده لله والوطن للجميع • ثم هو يدعو قومه للتبصر فيما يبثه الغرب من عوامل التفريق بين أبناء الأمة العربية باسم الدين فيقول علينا أن نقول لهؤلاء المصطادين فى الماء العكر من الأجانب ان العرب قوم يعرفون مصلحتهم وأنهم أخوة فى السراء والضراء مجتمعون على محبة أمتهم ووطنهم •

أحب الكواكبى قومه وأمته العربية التى جعلها الله أمة وسطا للنـاس • فوطنه كل بقعة من هـذه الأرض العربية يتمنى له العزة ويرجو له الرقى ويطلب منه أن ينبذ من عداء أبنائه الخـاملين الكسالى المتقاعدين عن نصرة وطنهم •

« وأنت أيها الوطن المحبوب : أنت العزيز على النفوس ، المقدس فى القلوب ، اليك نحن الأشباح ، وعليك تئن الأرواح••• أيها الوطن الباكى ضعافه : عليك تبكى العيون وفيك يحلو المنون• الى متى يعبث خلالك اللئام الطغاة ؟ يظلمون بنيك ويذلون ذويك، يطاردون أنجالك الانجاب ويمسكون على المساكين الطرق والأبواب، يخربون العمران ويقفرون الديار ؟

ويمضى الكواكبى بعد أن يوضح لبنى قومه ماهم فيه من ظلم الذين تحكموا فى رقابهم يمضى فيقول :

أيها الوطن العزيز : هل ضاقت رحابك عن أولادك ، أم ضاقت أحضانك عن أفلاذك ؟ ••• كلا انما فقدت الأباة ، فقدت الحماة ، فقدت الأحرار •

أيهـا الوطن الملتهب فؤاده : اما رويت من سـقيا الدموع والدماء ؟ ولكن دموع بناتك الثاكلات ودماء ابنـائك الأبرياء ، لادموع النادمين ولا دماء الظالمين • الا فاشرب هنيئا ولا تأسف على

البله الخاملين ، ولاتحزن فمامهم كرائما وكراما ، لسن هن كرائما باكيات محمسات ، وليسوا هم كراما أعزة شهداء ، انما هم غفر لله لهم ، من علمت ، قل فيهم الحر الغيور ، قل فيهم من يقول أنا لا أخاف الظالمين .

أيها الوطن الحنون ، كون الله عناصر أجسامنا منك ، وجعل الأمهات حواضن ، ورزقنا الغذاء منك ، وجعل المرضعات مجهزات، نعم ، خلقنـا الله منك ، فحق لك أن تحب أجـزاؤك وأن تحن على أفلاذك . كما يحق لك في شرع الطبيعة أن لا تحب الأجنبي الذي يابى طبعه حبك ، الذي يؤذيك ولا يواليك ، ويزاحم بنيك عليـك ويشاركهم فيك ، وينقل الى أرضه مافي جوفك من نفيس العناصر وكنوز المعادن فيفقرك ليغني وطنه ولا لوم عليه بل بارك الله فيه ! ..

ياقوم جعلكم الله خيرة اليوم وعدة الغد ، هذا خطابي اليكم فما هو الترقي وما هو الانحطاط فان وعيتم ولو شذرات فيا بشرى والسلام عليكم ... »

وهكذا يمضي الكواكبي رائد الحركة العربية الحديثة يؤدي دوره في ايقـاظ قومه حتى شبهه البعض بجـان جاك روسـو ومونتسكيو وفولتير وغيرهم من كتاب الثورة الفرنسية .

ولم يسبق أحد الكواكبي فيما دعا اليه هذا الكاتب الكبير كما أنه فاق كثيرين ممن جاءوا بعده ، فاذا قارناه بنجيب عزوري وهو الذي ألف سنة ١٩٠٥ كتابا أسماه ، يقظة الأمة العربيـة في آسيا التركية) نجد ان أثر الكواكبي في أمته كان أكبر ودوره كان أعظم . ذلك ان نجيب عزوري أقام في باريس وخاطب قومه من عاصمة اجنبية بعيدة عنهم كما أنه وضعه باللغة الفرنسية حتى

ان البعض يؤكد ان الشباب العربى لم يهتم بدعوته .(١)

ومضت دعوة الكواكبى تفعل فعلها فى نفوس أبناء الأمة العربية فكانت جهودهم فى مقاومة السلطان عبد الحميد الثاني حتى سقط عن الحكم بعد ان اضطر تحت ضغط الثوار الى اعلان اعادة العمل بالدستور سنة ١٩٠٨ . وفرح العرب باعلان الدستور وأقيمت الزينات والمهرجانات فى بيروت حيث لحن موسيقار عربى من أهالى بيروت وهو وديع صبرا نشيدا وطنيا رائعا كما غمرت بغداد هى الأخرى وغيرها من العواصم العربية الأفراح بهذا الدستور الذى جاهد العرب كثيرا فى سبيل اعادة العمل به . فلما استعدى السلطان عبد الحميد القوى الرجعية على الثورة هذا الدستور بادر العرب الى العمل مع أعضاء الاتحاد والترقى لعزله .

وحين تنكر الاتحاديون لكل جهود العرب فيما بعد ومضوا فى اتباع السياسة الطورانية التى استهدفت تتريك الوظائف واستعلاء العنصر التركى لم يرضخ العرب لهذه السياسة الحمقاء ومضوا يقاومون ذلك فكانت مطالبهم ومؤتمراتهم التى من أهمها مؤتمر باريس الذى عقد سنة ١٩١٣ والذى اشترك فيه ممثلون عن مختلف الجمعيات العربية المختلفة فى مختلف المدن العربية وعن مهاجرى العرب فى المكسيك والقيت فيه ابحاث ممتازة عن القومية العربية. ولم ير الاتحاديون بدا من الاسراع بالاتفاق مع العرب وعلى وجه التحديد مع ممثليهم وبعض رؤسائهم فى هذا المؤتمر ومن أهم ماتضمنه الاتفاق اعترافهم بأن يكون التعليم الابتدائى والثانوى باللغة العربية فى جميع البلاد العربية وان يكون تعيين اثنين من العرب عن كل ولاية عربية فى مجلس الأعيان .

---

(١) الامير مصطفى الشهابى : محاضرات عن القومية العربية ص ٥٩

الا أن الحوادث التى توالت بعد ذلك ولا سيما أعلان الحرب العالمية الأولى دفعت بالأتراك الى عدم تنفيذ كثير مما اتفقوا عليه مع ممثلى العرب وجاءت الثورة العربية بقيادة الشريف حسين بعد اتصال الجمعيات العربية فى سورية به وبعد اتصاله هو الآخر بها بايفاد ابنه فيصل اليها لتقطع كل تقارب وتفـــاهم بين العرب والأتراك • وقدم جمال باشا الى المشنقة كثيرين من الزعمـــاء العرب مثل عبد الكريم خليل ، عبد الحميد الزهراوى وكان عبد الكريم خليل أول من وقف على كرسى المشنقة فى ٦ مارس ١٩١٦ قال بصوته الجهورى •

أشهدكم أيها القوم اننا لم نأت أمرا فريا يوجب وقفتنا هذه ، وانى آسف على ما أظهرته من الاخلاص للدولة منذ نشوب الحرب ، ولكن الاتحاديين أبوا الا ان يعلنوا عداءهم لهذا العنصر الكريم الذى لايملك من أمره شيئا واذا كان جمال باشا يتهمنا باضرام الثورة لاســتقلال العرب ، فلابد من ضحايا لهــذا الاستقلال ولنكن نحن أول هذه الضحايا • »

واندلعت الثورة العربية بعد هذه المجازر التى قام بها جمال باشا فى سوريا ضد الأحرار العرب ، واذا كانت هذه الثــورة لم تحقق ما كان يرجى من وارئها أو أنها تنكبت الطريق حين وضعت يدها فى يد الانجليز كى تتخلص من الأتراك فكانت كالمستجير من الرمضاء بالنار ، فليس هذا مما يقلل من دورها ومن دور الذين بذروا بذورها ولن ينسى التاريخ ذلك الرعيل الأول من الكتاب العرب الذين استنهضوا الهمم ودعوا الى التحرر وبثوا روح الأمل فى النفوس وعلى راس هؤلاء يقف كاتبنا الكبير السيد عبد الرحمن الكواكبى •

الفصل الخامس

الكواكبي من خلال آثاره الخالدة

(دراسة لكتابه أم القرى)

يجمع المؤرخـون أن الكواكبى خلد عملين عظيمين فاق بهمـا كثيرين غيره من الكتاب وهما كتابيه (أم القرى) و (طبـائع الاستبداد) •

ولقد جاء كتابه أم القرى صيحة مبكرة لليقظة العربية الحديثة لم يسبقه اليها أحد غيره من الكتاب العرب فى ذلك الحين • وليس أدل على الابتكار وأوضح فى اظهار شخصيته وسعة أفقه وخياله من هذا الكتاب • وقد وضع الكواكبى هذا الكتاب قبل كتابه طبائع الاستبداد • فيقول صديقه كامل الغزى أنه اطلعه على الكتاب قبل رحيله الى مصر • ويقول الاستاذ رشيد رضا فى مجلة المنـار سنة ١٩٠٢ العدد الخامس ولما هاجر الى مصر كان أول أثر له فيها طبع سجل جمعية أم القرى ، وكان يقول ان لهذه الجمعية أصـلا وأنه توسع فى السجل • ونقحه ست مرات آخرها عند طبعـه منذ سنتين ونيف أى عقب قدومه الى مصر • وقد قال لنا مرة ان الانسان يتجرأ أن يقول ويكتب فى بلاد الحرية ما لا يتجرأ عليه فى بلاد الاستبداد ، بل ان بلاد الحـرية تولد فى الذهن من الأفكار مالا يتولد فى غيرها » •

ومعنى هذا ان الكواكبى ألف كتابه أم القرى قبل أن يغادرها الى مصر لكنه أدخل عليه كثيرا من التعديلات بعد قدومه الى مصر ونشره سنة ١٩٠٠ ثم نشره الاستاذ رشيد رضا فى مجلة المنـار سنة ١٩٠٢ • اتفق رشيد رضا مع الكواكبى حين بدأ نشر كتابه

أن يحذف منه ما يراه ماسا بالدولة العثمانية • ووافق الكواكبى لكن رشيد رضا عاد فعدل عن ذلك ونشر كتاب أم القرى كاملا • فقال فى العدد الخامس من مجلة المنار سنة ١٩٠٢ « انتهى كتاب سجل جمعية أم القرى وما ألحق به • وقد كنا اتفقنا مع جامعة السيد الفراتى (تغمده الله برحمته) على نشره فى المنار بتصرف يختص بتصحيح عبارته وحذف مساوىء الدولة العلية أيدها الله تعالى منه ، ثم استحسن فضلاء القراء عدم حذف شىء منه فللمطلعين على ما نشرناه من أول سنة المنار الى الآن **أن يثقوا أنهم أطلعوا على هذا السجل كله بعبارة أصح الا جملة واحدة ذكر فيها خديو مصر بانه يرجو مساعدة الجمعية • (١)**

ما هى هذه العبارة التى لم يوافق رشيد رضا على نشرها فى كتاب أم القرى ؟ عبارة وردت على لسان رئيس جمعية أم القرى بعد انتهاء جلسات الجمعية ، ان جمعيتنا هذه اختارت أن تجعل مركزها المؤقت فى مصر دار العلم والحرية ، فلها أمل قوى فى أن حضرة العزيز (عباس الثانى) يكون عضوا للقائمين باعزاز الدين وحاميا فخريا للجمعية • ولا بدع فانه خير أمين شاب نشأ على الغيرة الدينية والحمية العربية » (٢) •

كذلك ذكر السيد رشيد رضا أنه لم تنشر جدول المخاطبة الرمزية أى الرموز التى اتفق الأعضاء أن تكون رموزا لهم يتخاطبون بها (٣) •

---

(١) يقول الاستاذ سامى الدهان فى كتابه عبد الرحمن الكواكبى ان رشيد رضا حذف من جمعية ام القرى ما هو ماس بالدولة العلية (ص ٥٥ من كتاب الدهان) وهذا غير صحيح باعتراف رشيد رضا نفسه •

(٢) ص ١٨٨ من نسخة الكتاب الذى نشرته المكتبة التجارية الكبرى سنة ١٩٣١ •

(٣) ص ١٦٥ من نفس النسخة •

لعل السبب في احجام رشيد رضا عن نشر العبارة التي تتضمن أمل جمعية أم القرى في تأييد الخديو لها هو أن العلاقة بين رشيد رضا والخديو عباس الثاني فترت بعد أن توثقت مثلما فترت علاقة الخديو مع الامام محمد عبده • كان رشيد رضا من أصفى أصفياء الخديو يقابله دون موعد كما سبق لنا أن أشرنا من قبل بل ربما جاء تعرف الكواكبي للخديو عباس عن طريق رشيد رضا • هاجم رشيد تخلي عباس عن سياسة الحزم مع الانجليز وخاصة حادثة استعراض الخديو للجيش المحتل في ساحة قصره والوقوف تحت العلم البريطاني في يوم الاحتفال بعيد ملك الانجليز تزلفا منه وتقربا للعميد البريطاني • وكانت مجلة المنار قد وقفت باخلاص الى جانب الشيخ محمد عبده المفتي تنشر فتاويه وتدافع عنه ضد أكاذيب الخديو والمحيطين به وخاصة تلك الصورة التي نشرها بعض المغرضين وزعموا انها لمحمد عبده في حلبة رقص يخاصر فتاة أجنبية وكلبها يعبث بأطراف جبته • ولما كان من الواضح ان الصورة مزيفة حيث لفق المصور صورة واحدة جمع فيها صورا متفرقة لمحمد عبده وصورة أخرى لفتاة فجمعهما في صورة واحدة •

انبرى رشيد رضا يدافع عن الامام محمد عبده وانبرت بعض الصحف الأخرى المؤيدة للخديو ومنها صحيفة المؤيد تدافع عن الخديو ضد تهجم رشيد رضا عليه لاستعراضه الجيش الانجليزي (١) •

وقبل أن تصل العلاقات بين رشيد رضا والخديو عباس الى حد القطيعة سبقتها فترة أخرى كانت العلاقات فيها فاترة تماما فآثر رشيد رضا أن يحذف من جمعية أم القرى ما قد يفسر

(١) عباس العقاد : محمد عبده ص ١٧٦ •

أنه يسيء للعلاقة بين الخديو والسـلطان العثماني بنشره ما يفيد تأييد الخديو لهذه الجمعية .

كذلك نجد أن النسخة التي نشرتها المكتبة التجارية بالقاهرة سنة ١٩٣١ جاءت ناقصة في نهايتها عما أورده السيد رشيد رضا في مجلته المنار العدد الخامس سنة ١٩٠٢ فقد جاء في نهاية مانشره رشيد رضا عن هذه الجمعية ما يلي :

تذكرة : من السيد الفراتي (كاتب الجمعية) بأنه ربمـا يتأخر تشكيل جمعية تعليم الموحدين (وهي الجمعية التي انتهى الى ضرورة تشكيلها المؤتمر الاسـلامي الذي تخيل الكواكبي عقده في مكة أم القرى على نحـو ما سنتناوله فيما بعـد) ، فالمأمول ـ الجمعيات الاسلامية الموجودة في الهند وقازان والقرم ومصر وغيرها ألا تأنف من تنوير أفكارها بمباحث هـذا السجل فتقتبس منـه ما يناسبها وتتخذ القانون والوظائف مثالا وذكرى . ثم رجاء من الكواكبي يقول فيه من كان يؤمن بالله واليوم الآخر وعنده شـمم حمية ومروءة فلا يتجسس عن جمعيته أم القرى وأعضائها بقصد ايصـال سـوء اليها ، وليعلم ان يده وان طالت الأفلاك أكثر من الاضرار بها لأن الجمعية في أمان الاخلاص ولا يحيق المكر السيء الا بأهله ثم تذييل آخر بعنوان تهوين : ليعلم اسراء التقليد وورثة الأوهام ومعظمو العظام ومؤلهو الطغام ان تألمهم من صـدقة بعـض هذه المباحث لما ألفوه عمرهم هو تألم مباغث لا يلبث أن يزول متى خلوا بعقولهم وحكموا الحكمة والانصاف وتأملوا حق الايمان وناطق القرآن وحينئذ ينجلي لهم الحق ويندمون كمـا ندم مثلهم الأولون فيتوبون ويتوب الله عليهم والله يهدى من يشاء . ثم يتبع الكواكبي ذلك باعلان من احب أن ينجد مقاصد جمعية أم القـرى برأى فائق أو عمل مهم أو رغب في تعضيدها بجاه أو مال أو أراد مراسـلة الجمعية أن يراسل وكالة الجمعية بدون اسم بل بارسال كتاب بعنوان

الى مدينة ـ الى صندوق البوستة عدد ـ واذا أراد التخفى يمكنه أن يكاتبها أولا باسم له مختلق ثم يستعمل الكتابة الحبرية الموضحة فى الجدول المذيل به هذا السجل • والذين يرجى منهم تعضيد مهم كحضرات الأمراء العظام والأغنياء الكرام فلهم أن يطلبوا رسولا من قبل الجمعية ليوضح لهم ما يستوضحون • (انتهى) •

وبعد أن عرضنا لأوجه الاختلاف بين بعض الطبقات فى كتاب أم القرى نعود لنلقى عليه دراسة تبين قيمة مؤلفه وجهده وما تركه من أثر خالد لا ينكر على مر الأيام والأزمان •

وضع الكواكبى لكتابه عنوان (أم القرى) وهى مكة المكرمة التى تخيل فيها عقد جمعية من فضلاء المسلمين لبحث أسباب تدهور أحوالهم وتقرير الدواء بعد تشخيص الداء • وذكر أن مؤلف الكتاب هو السيد الفراتى وهو ماتكنى به الكواكبى • وناشد قراء كتابه الصبر حتى ينتهوا من قراءته حتى نهايته والا يتعجلوا نقده قبل أن يستوفوا مطالعته فقال أيها الواقف على هذه المذكرات •

اعلم انها سلسلة قياس لا يغنى أولها عن آخرها شيئا وأنها حلقات معان مرتبطة مترقية لا يغنى تصفحها عن تتبعها • فان كنت من أمة الهداية وفيك نشأة حياة ودين وشممة ومروءة فلا تعجل بالنقد حتى تستوفى مطالعتها وتعي الفواتح والخواتم ثم شأنك ورأيك • أما اذا كنت من أمة التقليد واسراء الأوهام بعيدا عن التبصر لا تحب أن تدرى من أنت وفى أى طريق تسير وما حق دينك ونفسك عليك والى ماذا تصير فتأثرت من كشف الحقائق ودبيب النصائح وشعرت بعار الانحطاط وثقل الواجبات فلم تطق تتبع المطالعة وتحكيم العقل والتنقل فى المقدمات والنتائج فاناشدك الاهمال الذى الفته أن تطرح هذه المذكرات الى غيرك ليرى فيها رأيه ـ السيد الفراتى •

ثم يقدم الكواكبى لكتابه بوصفه للعهد الذى كتب فيه كتابه (القرن الرابع عشر الهجرى ـ أواخر القرن التاسع عشر) عهدا عم فيه الخلل والضعف كافة المسلمين « وكان من سنة الله فى خلقه أن جعل لكل شيء سببا ، فلابد لهذا الخلل الطارىء والضعف النازل من أسباب ... دعت الجمعية بعض أفاضل العلماء والسراه والكتاب السياسيين لبحث **وسائل النهضة الاسلامية** فأخذوا ينشرون آراءهم فى ذلك فى بعض الجرائد الاسلامية الهندية والمصرية والسورية والتتارية . وقد اطلعت على كثير من مقالاتهم الغراء فى هذا الموضوع الجليل واتبعت أثرهم بنشر ما لاح فى حل هذا المشكل العظيم » .

ثم يذكر ما أتيح له من سياحة زار فيها البلاد العربية لاستطلاع الأفكار وتهيئة الاجتماع فى موسم أداء فريضة الحج . ومن الواضح أن الكواكبى كان يعلق أهمية كبيرة على موسم الحج كموسم التقاء المسلمين من كافة بقاع الأرض لأداء هذه الفريضة الغراء والتى كان أحد أسباب فرض الله سبحانه وتعالى لها لعباده المسلمين أن يشهدوا منافع لهم . ومن ثم فان أول هذه المنافع هو **بحث العلة وتشخيص المرض** النازل بالمسلمين والعمل على علاجه . وتخيل الكواكبى انه فى زيارته للبلاد الاسلامية المختلفة دعا من يلتمس فيه الاخلاص لدينه وأمته ورجاحة العقل وأنه عاد بعد دعوته لهؤلاء الى مكة فوجد ان بعض من دعاهم قد سبقه الى مكان الاجتماع . واختار لمكان الاجتماع حيا متطرفا من أحياء مكة لاترقبه العيون واستأجر هذه الدار باسم غير اسمه لتكون مضمونة من الرقابة والتجسس .

وبدا انعقاد المؤتمر الذى ضم ممثلين للبلاد الاسلامية بما فيها بعض البلاد التى لم يزرها الكواكبى مثل مراكش وتونس . وانعقد المؤتمر من منتصف شهر ذى القعدة سنة ١٣١٦ هجرية

حتى نهايته في اثنى عشر اجتماعا غير اجتماع الوداع حيث جرت في هذه الجلسات « مذكرات مهمة صار ضبطها وتسجيلهـا بكمال الدقة كما سيعلم من مطالعة هذا السجل المتضمن كيفية الاجتماعات مع جميـع المفاوضـات والمقررات غير ما آثرت الجمعيـة كتمه كما سيشار اليه » ٠

بلغ عدد المجتمعين كما تخيلهم الكواكبى ثلاثة وعشرون عضوا بما فيهم السـيد الفراتى الذى عهد اليه كتابة محاضر الجلسات ٠ وتولى رياسة الاجتماعات العضو المكى على أساس أن المؤتمر منعقد فى بلده ٠ واتخذ المجتمعون شعارهم (لا نعبد الا الله) ، وتعاهدوا على الجهاد والأمانة ٠ ووضع الرئيس منهج البحث وهو الكتمان فهو أدعى الى افاضة كل بما فى نفســه صراحة ٠ ودعاهم أن يتركوا اندماجهم جانبا ويعتمدون على صريح الـكتاب وصحيح السنة حتى لا تتفرق بهم الآراء ٠

وحين وضـع الكواكبى كتابه حث المسـلمين على عدم اليأس فهو يورد على لسان رئيس الجمعية أنه لا داعى لليأس « لأن محض انعقاد جمعيتنا هذه لمن أعظم تلك المبشرات خصوصا اذا وفقها الله تعالى بعنايته لتأسيس جمعية قانونية منتظمة ٠٠٠ (١) » ٠

ونلاحظ ان الكواكبى يهتم بنظام الجمعيات فهى عنده ، تقوم بالعظائم وتأتى بالعجائب وهذا هو سر نشأة الأمم الغربية ٠ وهو بهذا مثلا يشير الى الجمعيات الثـورية الايطاليـة التى لعبت دورا فى الوحـدة والاسـتقلال الايطاليين ، ومنهـا جمعية الكاربونارى الايطالية التى كان هدفها مقاومة الاستبداد فى كل أشكاله (٢) ٠

---

(١) الكواكبى ـ أم القرى ص ١٥ ط سنة ١٩٣١ المكتبة التجارية ٠

(٢) التـاريخ الاوربى الحـديث لهربرت فيشر ترجمة نجيب هاشم ووديع الضبع ص ٢٣٨

والمعروف ان الكواكبي كان من المعجبين بزعماء الحركة الايطالية فهو يقول ومن أين لنا زعيم (ملزم) كغاريبا لدى يوفق بين أمرائنا أو يلزمهم بجمع كلمتنا ٠

يرى الكواكبي ان الغلبة للجماعة « وأن مبدأ أعظم الأعداد اثنان فذلك مبدأ الجمعيات شخصان ثم تتزايد » ٠ وهو يأمل لهذا الشرق بجمعية تكون وظيفتها الاساسية أن تنهض بالأمة من وهدة الجهالة وترقى بها في معارج المعارف متباعدة عن كل صبغة سياسية ٠

ثم يحدد الرئيس المسائل التي ستبحثها الجمعية في عشر مسائل رئيسية : موضع الداء ـ أعراضه ـ جراثيمه ثم وصفه ٠ يتبع ذلك وسائل استعمال الدواء ثم ما هو الاسلام الصحيح أو ما هي الاسلامية ، ثم كيف يكون التدين بالاسلامية ٠ أخيرا ٠ ما هو الشرك الخفي وكيف تقاوم البدع وسن قانون لتأسيس جمعية تعلمية تسمى بجمعية تعليم الموحدين ٠

واستمرت اجتماعات الجمعية يومية فيما عدا يومي الثلاثاء والجمعة وكانت جلساتها تدوم من الصباح حتى قرب موعد صلاة الظهر حيث ينصرف الأعضاء لتأدية فريضة الصلاة ثم يواصلون اجتماعهم في اليوم الذي يليه ٠

وحين ينتهي الكواكبي من اجتماعات جمعيته الى اقرار ضرورة وجود جمعية تعلمية هي التي أسماها جمعية تعليم الموحدين كان أشبه ما يكون بالامام محمد عبده حين اختلف مع الأفغاني في نظرته للاصلاح ٠ رأى محمد عبده بعد أن عمل والأفغاني معا في اصدار جريدة العروة الوثقى أن التربية والتعليم والعمل فيها أجدى من العمل في السياسة « عرضت عليه (على الأفغاني) حين كنا في باريس أن نترك السياسة ونذهب الى مكان بعيد عن

مراقبة الحكومات نعلم ونربي من نختار من التلاميذ على مشربنا فلا تمضي عشر سنين الا ويكون عندنا من التلاميذ الذين يتبعوننا في ترك أوطانهم والسير في الأرض لنشر الاصلاح المطلوب فينتشر أحسن الانتشار فقال انما أنت مثبط (١) ٠

وواضح أن الكواكبي كان يعلق على التعليم والارشاد والتثقيف ما كان يعلقه الأستاذ الامام محمد عبده ٠ وكان الكواكبي على اتفاق في ذلك مع محمد عبده وكان (الكواكبي يثني على الامام الثناء كله ، فقد كان يعتقد أن الامام محمد عبده أعلم من أستاذه الأفغاني وقد خالفه رشيد رضا في ذلك فقال وهذا غلط منه (٢) ٠

كان الكواكبي يعلق أهمية كبيرة على تشخيص الداء الذي ابتلي به المسلمون في أيامه ، وأن ذلك كفيل بتقرير الدواء ، فان الطبيب الناجح هو الذي يتوصل الى معرفة الداء وانه حين يعقل ذلك لا يستعصى عليه علاج مريضه ٠ من أجل هذا استغرق تحديد موضع الداء وأعراضه ثلاثة اجتماعات متصلة من اجتماعات الجمعية ٠

تشخيص الداء :

بدأ الأعضاء في اجتماعهم الثاني في تشخيص الداء أو الفتور العام الذي نزل بالمسلمين كما وصفه رئيس الجمعية وقبل أن يدلى كل بدلوه ذكرهم الرئيس بعدم التعقب لرأي ذاتي أو الاصرار عليه أو الانتصار له على أساس أنهم باحثون لا متناظرون ثم اتفقوا على أنه اذا أعجبهم رأي المتكلم أثناء خطابه فلا بأس من التعليق عليه بلفظ مرحى وهو لفظ الاستحسان ٠

---

(١) عباس العقاد : محمد عبده ص ١١٦

(٢) رشيد رضا : تاريخ محمد عبده ج ١ ص ١٠٥ ٠

ثم أخذوا بعد التسليم بوجود المرض يبحثون فى أسبابه وذهبوا فى ذلك مذاهب شتى فالكواكبى يرى أن أول الأسباب هو ما أصاب المسلمين من عقيدة جبرية • ويورد ذلك على لسان العضو الشامل • فهذه العقيدة فى القضاء والقدر آلت الى الزهد فى الدنيا والقناعة باليسير والكفاف من الرزق واماتة المطالب النفسية كحب المجد والرياسة والاقدام على عظائم الأمور والترغيب فى أن يعيش المسلم كميت قبل أن يموت • والعقيدة بهذا الشكل مثبطة معطلة لا يرضاها عقل ولم يأت بها شرع • ويخشى الكواكبى أن يفسر كلامه هذا على أنه ضد الزهد الذى جاء به الاسلام فيورد على لسان العضو القدسى ترغيب للناس فى الأثرة العامة أى تحويل المسلم ثمرة سعيه للمنفعة العمومية دون خصوص نفسه • ثم يمضى العضو القدسى (ممثل مدينة بيت المقدس) ان سبب الفتور هو تحول نوع السياسة الاسلامية من ديموقراطية الى استبدادية فأفسدت العقول وأماتت الأخلاق •

وبعد أن يبدى الأعضاء اعجابهم بما ذكره القدسى بذكرهم كلمة مرحى كما اتفق على ذلك فيما بينهم ، يبادر العضو التونسى يقول ان بعض الأمم الأوربية محكومة بحكومة استبدادية ولم يمنع ذلك من تقدمها ، وانما السبب فى نظره الأمراء المترفون الأخسرون اعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا • فمنهم (الأمراء) من بلغ جهله درجة أحط من درجة الكائنات الحية الأدنى درجة من الانسان • فهذه الكائنات الحية لها نواميس وطبائع تحمى زمارها وتمنع عن حدودها • بينما هؤلاء الأمراء ليس لهم طبائع ولا نواميس يخربون بيوتهم بأيديهم وهم لا يشعرون • وهناك بعض الأمراء من هو ضال على علم فنجدهم يشكون ويبكون مع أنهم يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبلهم يظهرون الرغبة فى

الاصلاح ويبطنون الاصرار والعناد على ما هم عليه من فساد دينهم ودنياهم .

أما العضو الرومى فيرى ان السبب الحقيقى لما فيه المسلمون اليوم هو فقدهم الحرية بجميع أنواعها . ويضع الكواكبى ملاحظة تفيد بأن العضو الرومى هذا هو من أهل القسطنطينية الذين حـرم عليهم مجرد التلفظ بكلمة حرية وجمعية ووطن . وهو بهذا يشير الى ما فرضه السلطان عبد الحميد الثانى من استبداد فاق فى قوته أى نوع من الاستبداد الآخر حتى أصبح الانسـان يحاسب على الكلمة ولو لم يقصد بها شيئا فبمجرد ذكر كلمة حرية أصبحت من الكلمات الممنـوع استخدامها وكذلك ذكر قتل واغتيـال ملك أو أمير (١) .

ويمضى الكواكبى فى القول على لسان العضـو الرومى ان المسـلمين حرموا من الحرية بكافة أنواعها حرية التعليم والخطابة والبحث العلمى . ومما لا شك فيه ان الحرية أعز شىء على الانسان بعد حياته وأنه بفقدانها تفقد الآمال وتبطل الأعمال وتموت النفوس وتتعطل الشرائع وتختل القوانين بينما كان هناك المسلمون الأوائل لا يخـافون من الخليفـة فيخاطبون أمير المؤمنين بقـولهم يا عمرو ويا عثمان . « فصرنا ربما تقتـل الطفـل فى حجر أمه وتلزمهـا السكوت فتسكت ولا تجسر أن تزعج سمعنا ببكائها عليه » .

---

(١) يورد الاستاذ ساطع الحصرى فى كتابه البلاد العربية والدولة العثمانية ص ١٠٠ حادثة طريفة تفيد انه حين قتل ملك الصرب فى بلغراد منع السـلطان عبد الحميد ذكر الخبر ونشرت الصحف الحادث على أنه موت طبيعى كما ارسلت وزارة الداخلية الى جميع الولايات برقيات مستعجلة لمنع دخول جميع الجرائد الأجنبية التى نشرت خبر الاغتيال وذلك حتى لا يخطر على بال أحد من رعية الدولة امكان اغتيال ملك من الملوك . وعلى هذا النحو كان عبد الحميد يذهب الى التفكير فى أبعد الاحتمالات .

وبينما يرى العضو الرومي أن فقدان الحرية سبب الفتور والتقاعس عن كل صعب وميسور ، يرى العضو التبريزى أن السبب ترك المسلمين الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر « مع أن ازالة المنكر فى شرعنا تكون بالفعل فان لم يكن فبالقول فان لم يكن فبالقلب » ..

ثم يتناول الكلمة العضو الفاسى أن شريعة السلف الصالح كانت شريعة سمحاء واضحة المسالك فكان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وظيفة لكل مسلم ومسلمة .

كان الكواكبى يريد أن يعود الدين الى بساطته الأولى الغابرة والتى أوحى بها النبى صلى الله عليه وسلم على اعتبار أنه الأصلح للمجتمع الاسلامى . وكان العرب آنذاك يجاهرون بعدائهم لحكم الفرد وكرههم له ويرثون لحال الأمم التى وضعت نفسها تحت رحمة رجل واحد وكانوا يمقتون الاستبداد الذى هو أصل كل بلاء . كان الخليفة فى صدر الاسلام ينتخب ولكل مسلم حسن الخلق سديد الرأى حق الانتخاب وكان حفل تنصيب الخليفة يعرف بالبيعة وهو عمل طوعى مؤداه الاعتراف بالخليفة والولاء له . وكان الخليفة يعتبر الأول بين أنداده . فالناس يخاطبونه باسمه دون أى لقب وتفخيم ، وفى كتب الأخبار العينية سنة ٧١٣ م حدثت زيارة وفد عربى من اثنى عشر شخصا الى البلاط الامبراطورى فأحدثت تصرفاتهم دهشة لدى الامبراطور وحاشيته عندما مثل أعضاء الوفد بين يدى الامبراطور ورفضوا السجود له (١) . ذلك أن الشعور بكرامة الانسان كانت متأصلة فى نفوس العرب الى درجة أنهم لم يكونوا يتصورون انسانا يذل نفسه أمام أحد غير الله سبحانه عز وجل .

---

(١) د. نجلاء عز الدين العالم العربى ص ٤٦ ترجمة د. محمد عوض محمد وآخرين

ثم تناول الكلمة العضو الفاسى فذكر أن سبب فتور المسلمين هو اهمالهم الاهتمام بالدين ويمجد الاســلام فى أيامه الأولى على عهد السلف الصالح حين كانت الشريعة سمحاء واضحة المسالك معروفة الواجبات والمناهى فكان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وظيفة لكل مسلم ومسلمة ؛ « ثم دخل فى ديننا أقوام ذوو بأس ونفاق أقاموا الاكتســاب مكان الاحتســاب • وحصروا اهتمامهم فى الجباية واســتخدموا لذلك جنــدهم ، وادى انحصــار الأمراء الدخلاء فى الجباية والجنــدية لاهمــال الدين كلية ••• ولــم يبق للدين عندهم من أثر الا على رءوس الألسن » •• ولم يعد يتمسك الأمراء بالدين الا بقصد تفسير الآيات تفســيرا يمكنهم من بســط سلطانهم على الضعفاء مثل قوله تعالى :

(أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) وقوله تعالى

(وجاهدوا فى سبيل الله) ، مع اغفالهم ان الجهاد المأمور به ما يستحصل اعزاز كلمة الله •

وقد كان المســلمون أعزاء يوم توثقت الرابطة الدينية بينهم فلما انحلت ضاعت الأخلاق ففتروا وخمدوا •

ويتمنى الكواكبى أن تقوى الرابطة الدينية بين المســـلمين كســبيل الى تقوية الرابطــة بينهم ثم هو يرى ان فقد الرابطـــة الدينية ليست سببا للفتور العام وحدها بل يؤكد على لسان العضو المدنى (الممثل للمدينة المنورة) ان الطاقة الكبرى جاءت من العلماء المدلسين •

وللكواكبى موقف معروف مشهور بين العلماء الدينيين الذين نســوا وظيفتهم الهامة وهى انهم بحكم كونهم ورثة الأنبياء عليهم واجب الهداية الحقة الخالصة من كل الشوائب الباطلة •

يرى الكواكبى انه نظرا لما للعلماء من مكانة اجتماعية مرموقة

فقد ظهر من ينافس هؤلاء العلماء . لكنه يرى أن هؤلاء المنافسين للعلماء هم قوم مدعين العلم مدلسين على المسلمين بتأويل القرآن مالا يحتمله فادخلوا من البدع فى الدين ما ليس فيه كالعلم اللدنى وترتيب المقامات ووراثة السر والرهبنة وأصبحوا كرجال الكهنوت فى مراتبهم وتميزهم فى ألسنهم .

ومن المعروف أن الكواكبى حمل حملة شعواء على أولئك المتصوفين الذين جاءوا الى الدين بما ليس فيه .

يقول الأستاذ رشيد رضا وهو يؤرخ للأستاذ الامام محمد عبده . طالما فكر محبو الاصلاح من عقلاء المسلمين فى اصلاح شأن المنتمين الى طرق الصوفية وانقاذهم من خيالاتهم الفاسدة ، وبدعهم الفاضحة ، بل اخراجهم من جحر الضب الذى دخلوه وهم لا يشعرون فلم يهتد أحد الى ذلك سبيلا . ولما هاجرت الى مصر سنة ١٣١٥ هـ كان أول اصلاح سعيت اليه أن حاولت اقناع شيخ مشايخ الطرق الصوفية الشيخ محمد توفيق البكرى بالقيام بهذا الاصلاح ... وقلت له مرارا ان الاصلاح لا يقوم الا برجال من أهل العلم الصحيح والأخلاق والغيرة والاستقامة يناط بهم أمر هذه الطرق . ثم علمت بعد طول السعى أن ما حاولت الاستعانة بهذه السلطة الرسمية على هذا الاصلاح الروحى يكاد يكون محالا ...

ويمضى السيد رشيد رضا يقول : وقد جرت المذاكرة فى ذلك بينى وبين صديقى **السيد عبد الرحمن الكواكبى** ، وكان يرى ان اصلاح هذه الطرق أو الاصلاح من بابها محال . فقلت أرأيت اذا اقنعنا بعض اخواننا الصادقين فى حب الاصلاح العالمين بطرق الارشاد بأن يكونوا شيوخا لهذه الطرق المشهورة - ألا يستطيعوا أن يقفوا بعادة أهل طريقتهم عند حدود السنة ويربوا طائفة من المريدين تربية جديدة ؟ فقال (الكواكبى اننا جربنا ذلك فى حلب

فأقنعنا رجلا من أمثال هؤلاء الذين تعنيهم بنحو ما ذكرت فكان عاقبة أمره معهم أن أفسدوه ولم يصلحوه وأنس بهذه الرياسة وآثرها فخسرناه بها » (١) .

ومضى الكواكبى يحمل على أولئك الذين ادعوا التصوف فقال « ومن العادة أن يلجأ ضعيف العلم الى التصوف كما يلجأ فاقد المجد الى الكبر وكما يلجأ قليل المال الى زينة اللباس والأثاث (٢) .

ونمضى مع الكواكبى فى كتابه أم القرى وهو يحمل حملة عنيفة على هؤلاء الذين سماهم بالمدلسين الذين سحروا عقول الجهلاء فجعلوا التعبد لهوا ولعبا وذلك أهون على النفس والطبع من القيام بتكليفات الشرع كما وصف الله تعالى عبادة المشركين فقال (وما كان صلاتهم عند البيت الا مكاء وتصدية) أى صفيرا وتصفيقا وهؤلاء (المتصوفون) جعلوا عبادة الله تصفيقا وشهيقا وخلاعة ونعيقا .

ويذكر الكواكبى ان هذا الرأى الذى أبداه ممثل المدينة المنورة فى الاجتماع قد أيده الأعضاء بذكرهم كلمة (مرحى) كما اتفق على ذلك فى بدء اجتماعاتهم .

ثم يضيف العضو الرومى الى ذلك ان الداء الدفين هو دخول الدين تحت ولاية العلماء الرسميين وبعبارة أخرى تحت ولاية الجهال المتعممين .

ويمضى الكواكبى على لسان العضو الرومى فى الاجتماع الثالث لجمعيته يقول ان هؤلاء المتعممين فى البلاد العثمانية اتخذوا لأنفسهم قانونا سموه (طريق العلماء) وجعلوا فيه من الأصول

(١) رشيد رضا ـ تاريخ محمد عبده الجزء الأول ط . ص ١٣٩ .

(٢) الكواكبى ـ ام القرى ط المكتبة التجارية سنة ١٩٣١ ص ٣٥

ما أنتج منذ قرنين الى الآن ان يصير العلم منحة رسمية تعطى للجهال حتى للأميين بل للأطفال ! .

ويحمل الكواكبى على السلطان عبد الحميد اغداقه الألقاب على أناس لا يمتون للعلم بشيء فيصدر المنشور الرسمى من قبله ليصفهم بل ليصف بعضهم وهم ما زالوا أطفالا بأنهم أعلم العلماء المحققين ثم اذا شب بعضهم عن الطوق يخاطب بأنه (أفضل الفضلاء المدققين) (وأقضى قضاة المسلمين معدن الفضل واليقين رافع أعلام الشريعة والدين وارث علوم الأنبياء والمرسلين) ويظل السلطان يغدق عليه من الألقاب حتى يوصف (أعلم العلماء المتبحرين وأفضل الفضلاء المتورعين ينبوع الفضل واليقين) الى آخر ما في تلك التآشير من الكذب المشين ! .

ويرى الكواكبى أن هؤلاء المتعممين قابلوا انعام السلطان عليهم بهذه الالقاب بوصفهم اياه ومخاطبتهم له (بالمولى المقدس ذى القدرة صاحب العظمة والجلال المنزه عن النظير والمثال واهب الحياة ظل الله خليفة رسول الله مهبط الهامات مصدر الكرامات سلطان السلاطين مالك رقاب العالمين ولى نعمة الثقلين وملجأ أهل الخافقين) وكلها ألقاب شرك بالله وتؤدى الى غضبه وتدفع بقائلها الى التهلكة .

ويحمل الكواكبى على هؤلاء المدعين للعلم والعلم منهم براء فبعضهم لا يحسنون قراءة نعوتهم المزورة ! وبعضهم يشرك بالله يلبسون كما كان يلبس كهنة الروم .

ويحمل على قضاة القسطنطينية أنهم أهملوا حكام الشرع وجعلوا المناصب تباع وتشترى وقصروها على المتملقين المنافقين وبهذا انحصرت الوظائف الدينية فى الجهلاء والمنافقين ولم يقتصر الأمر على القسطنطينية وقضاتها من وجهة نظر الكواكبى بل ان كل ولاية من ولايات الدولة العثمانية (بعد صدور قانون الولايات) أصبح

يشترك في مجلس ادارتها عام أو أكثر يحكم مع واليها فيما لم ينزل به الله كالربا وكثير من المسائل التى لا تتمشى مع تعاليم الشرع ثم يقول ، وكان الأليق والأنسب بالاسلامية أن يبقى العلماء بعيدين عن ذلك » •

كان الكواكبى يريد ان يكون عالم الدين حيث كان سلفه الصالح يتقرب له الحاكم ويهابه لا يتقرب هو للحاكم ويتملقه ، فاذا ما استبد الحاكم كان أول من يتصدى له العلماء يقفون فيوجهه لأنهم حماة الدين وورثة الانبياء • ومن أجل هذا فالكواكبى لايسمى هؤلاء الذين يعينون الامير أو الحـاكم على ظلمه ويجعلونه يعادى الشورى ـ بالعلماء وانما يسميهم المتعممين أى الذين ادعوا أنهـم علماء وما هم من العلم فى شىء •

يقـول الكواكبى « ومن أهم دسائس هـؤلاء المتعممين أنهم ينفثون فى صـدور الأمراء لزوم الاستمرار على الاستقلال فى الرأى وان كان مضرا ومعاداة الشورى وان كانت سـنة ، المحـافظة على الحالة الجارية وان كانت سيئة • ويلقون عليهم بأن مشاركة الامة فى تبرير شئونها واطلاق حرية الانتقاد لها يخل بنفوذ الأمراء ويخالف السياسة الشرعية ••• » (١)

ويخلص الكواكبى من ذلك الى القول ان هؤلاء الجهلاء الذين تمتعوا بمزايا العلماء العاملين واغتصبوا أرزاقهم ـ قد ثبطوا الهمم وقلت الرغبة لديهم فى تحصيل العلم فجعلوا تحصيله وسـيلة للارتزاق وهكذا فسد العلم وقل أهله •

والكواكبى حريص على العناية بدراسة العلوم العقلية وخاصة العلوم الرياضية والطبيعية ويورد ذكر اهمال المسلمين لهذه العلوم على أنه السبب فيما عمهم من فتور وتخاذل ويود لو عنى المسلمون

---

(١) الكواكبى ـ أم القرى ص ٤٥ .

بدراسة العلوم الطبيعية والحكمية لأصبحوا بعد الاكتشافات الجديدة يؤمنون بالله عن يقين بعد أن تكشف لهم بفضل هذه العلوم كثيرا من قدرته وعظمته ولاتضح لهم ان العلماء الأوربيين لم يأتوا بجديد في مكتشفاتهم فكل ما ذكروه قد أشار اليه القرآن الكريم • ويذكر الكواكبي كثيرا من الامثلة على صدق هذا القول على لسان العضو الكردي : « أضحى المسلمون محتاجين للحكمة العقلية التي كادت تجعل الغربيين أدرى منا حتى في مباني ديننا كاستدلالهم بالمقايسة على أن نبينا عليه أفضل الصلاة والسلام أفضل العالمين عقلا وأخلاقا وكاثباتهم بالمقابلة أن ديننا أسمى الديانات حكمة ومزية • وعندي أنه لولا هذا القصور ما وقع المسلمون في هذا الفتور •

ثم يطالب الكواكبي بعدم اليأس فهو يرى ان يأس المسلمين من منافسة الامم الاخرى هو أحد أسباب التخلف فهو يطالب بالحث والسعي وعدم الاستسلام لدعاة الجزع وأنصار التخاذل • وأهمية دعوة الكواكبي أنهـــا جاءت في وقت ران اليأس فيه على النفوس واستسلم الجزع فيه على القلوب فالبلاد العربية تقع تحت براثن الاحتلال الاجنبي ، فالجزائر تحت الاحتلال الفرنسي ومعها تونس ومصر والسودان تحت الاحتلال الانجليزي والبلاد العربية الاخرى الواقعة تحت حكم السلطان عبد الحميد في تخلف واستبداد لم تشهد له مثيلا من قبل • ومن هنا تبدو أهمية دعوة الكواكبي التي جاءت تبدد دياجير الظلام وتبشر بفجر من الأمل الكبير •

وتلمس الحماس وراء كل كلمة يكتبها الكواكبي في هــذا المجال وتحس بالقوة وتشعر بالعظمة التي ملأت جوانب هذا الرائد الكبير ، كنا علماء راشدين وكان جيراننا متأخرين عنا فعرفنا البقاء فتمادوا واجتهدوا فلحقونا ولبثنا نياما فاجتازوا وسبقونا وتركونا وراء زطال نومنا فبعد الشوط حتى صار ما بعــد وراثنا وراء • فصغرت نفوسنا وفترت همتنا وضعف احساسنا فيئسنا من اللحاق والمجاراة وخرجنا من ميدان المنافســـة والمباراة والسنتنا تفيض

بقولنا سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص فعدنا الى كهف النوم مستسلمين للقضاء نطلب الفرج بمجرد التمنى والدعاء » (١)

وقد أحسن السيد كامل الغزى فى وصفه لأسلوب الكواكبي بقوله انه كان يختار للمعني لفظا على قدر المعنى لايضيق ولايتسع لغيره وهذه هى البراعة فى اللغة وما تؤلفه مفرداتها من المركبات الاسنادية وكان لا يعبأ بزخرفة الالفاظ ولا يكثر من الاستعارة (٢)

ويمضى مع الكواكبى فى عرضه لأسباب ما وصفه بالفتور العام بين المسلمين والذى ذكر فيه الاسباب المتنوعة المختلفة على لسان أعضاء جمعيته التى تخيل عقدها فى مكة أم القرى .

فيرى ان من بين أسباب هذا الفتور الفقر الآخذ بالزمام لأن الفقر قائد كل شر ورائد كل نحس ، فمنه جهلنا ومنه فساد أخلاقنا » .

ويبدع الكواكبى غاية الابداع حين يدعو الى ان الدين الأسلامى دين الاشتراكية بما قرره من حق الفقراء فى أموال الأغنياء فقلبت الحكومات الاسلامية الموضوع فصارت تجبى الاموال من الفقراء والمساكين وتبذلها للأغنياء وتحابى بها المسرفين والسفهاء .

وسنرى عند دراستنا لكتابه طبائع الاستبداد كيف كانت دعوة الكواكبى الاجتماعية تتمثل فيها كل مثل الاشتراكية ومبادئها فكان بذلك أول من نادى بأن يكون الاجر على قدر العمل والى تحديد الملكية على نحو ما سنعرض له فيما بعد .

---

(١) الكواكبى — أم القرى ص ٥١ .

(٢) كامل الغزى : مجلة الحديث سنة ١٩٢٩ العدد السادس ص ٤٠٤ وما بعدها : تاريخ ما أهمله التاريخ من سيرة عبد الرحمن الكواكبى بطل الحرية وفقيد الشرق .

ويرى الكواكبي ان الزكاة التي جاء بها الاسلام فرضـــا من فروضه وركنا من أركانه الاساسية انما قصد بها اذا ما عـــاش المسلمون مسلمين حقيقة (يؤدون تلك الفريضة) أمنوا الفقـــر وعاشوا عيشة الاشتراك العمومي المنتظم الذى يتمناه أغلب الدول الأخرى التى تدعى المدنية والتقدم . فاذا كانت تلك الأمم تنادي بما يسمي الاشتراكية والقصد منها التقارب والتساوى فى الحقوق فان أداء الزكاة يكفل للمسلمين ذلك كما سبب اهمالها فقد الثمرات العظيمة من معرفة فضلها .

ويسوق الكواكبى على لسان العضو المسلم من بلاد الانجليز فضل الزكاة وحكمة التشريع فى أمور كثيرة مثل نسيانهم بالكلية حكمة تشريع الجماعة وصلاة الجمعة والحج .

وفي الوقت الذى أخذت الأمم الأخرى عن الاسلام أمورا كثيرة منها تخصيصها يوما فى الأسبوع للراحة من العمل ، يعقد الناس فيه اجتماعاتهم وندواتهم يتباحثون ويتناجون . وهذا نفس ما رمى اليه التشريع الاسلامى حين جعل صلاة الجمعة صلاة جماعة . ففى الوقت الذى أهمل المسلمون كثيرا من شئونهم أخذ الآخرون عنهم فضائل دينهم فتقدموا عليهم وسبقوهم في ميادين كثيرة بسـبب ذلك .

ثم يعود الكواكبى ليحمل على العلماء المنافقين ويرى أن أفضل الجهاد فى الله هو الحط من قدر العـلماء المنافقين والجهال وتحويل احترام الناس للعلماء العاملين حتى اذا رأى الحكام ذلك انقادوا بهم أيضا واضطروا لاحترام العلماء .

وللكواكبى اهتمام خاص بالعلماء وبوظيفتهم فى الامة الاسلامية فهم أهل الحل والعقد الذين لا تنعقد شرعا الامامة إلا ببيعتهم وهم رؤساء الأمة ووكلاء العامة ويستعرض تاريخ الامة الاسلامية فيرى

ان ضعفها أو قوتها مرهون بضعف أو قوة أهل الحل والعقد فيها واشتراكهم فى تدبير شئون الامة • ويخلص الى أن ضـــعف الامة الاسلامية فى الوقت الذى عاشه الكواكبى مرجعه ضعف العلمـاء وتملقهم للأمراء والحاكمين ، وهم بفعلهم ذلك مكنـــوا الأمراء من الاستبداد •

وبعد أن استغرق بحث اعراض الداء النازل بالمسلمين وأسبابه وجرائمه ثلاث جلسات ، بدأ الاعضاء فى اجتماعهم الرابع ينتقلون الى بحث مسألة أخرى من المسائل التى أدرجوها فى جدول أعمالهم وهو تعريف الدين الاسلامى أو **ما هى الاسلامية ؟**

وجاء الكواكبى بدراسة لهذه المسألة على لسان العضو النجدى وكأنه يريد ان يقول ان الاسلام الصحيح هو اسلام أهل نجد ومن ثم فان العضو النجدى أقدر الناس على أن يتناول ذلك ، فأهـــل مكة أدرى بشعابها كما يقول المثل •

يدعو الكواكبى الى ضرورة اتباع القرآن والسنة دون تأويل أو تحريف • والكواكبى فى هذا يريد أن يعود الدين الاسلامى الى بساطته الاولى التى كان عليها فى صدر الاسلام وهو فى هذا شبيه بابن تيميه الذى كان يدعو الى نفس ما دعا اليه الكواكبى فى هذه الناحية ، ويتفق الكواكبى مع ابن تيميه بأنه لا سبيل الى عـزة الاسلام الا بالقضاء على مظاهر الشرك المختلفة رفاق من يعتقد ان هناك غير الله قادر على قضاء حاجته ويرجو عنده الخير فهو مشرك بالله •

ومن البحوث الممتعة التى جاء بها الكواكبى فى كتابه أم القرى بحثه عن الشرك فهو يفسر كلمة الايمان ومعناها الطاعة والتسليم بدون اعتراض ويشرح كلمة العبادة بالتذلل والخضوع ثم التوحيد بمعنى العـــلم بأن الشيء واحد ، وان الواحد والأحد صفتـان لله

معناهما المنفرد الذى لا نظير له أو ليس معه غيره • وكانت مهمة الرسل الاولى هى جعل الناس لا تعظم غير الله وان نبينا صلى الله عليه وسلم لبث عشر سنين يقاسى الاهوال فى دعوتــه الناس الى التوحيد فقط وسمى أمته الموحدين •

وبعد أن يمضى الكواكبى يشرح شرحا مستفيضا معنى اياك نعبد واياك نستعين وأن معناها الاستعانة بالله مقرونة بعبادته • فاذا جاء بعض المسلمين اليوم يعبدون الله ويستعينون بغيره من الاولياء الصالحين ، وغيرهم فهم بعيدون عن عبادة الله وأصبح هناك مسلمون يخترعون عبادات وقربات لم يأت بها الاسلام ومنهــم جماعة اتخذوا دين الله لهوا فجعلوا العبادة غناء ورقصا • ثم هو يحمل على التصوف فيرى ان الدين الاسلامى كان نقيا حتى أواخر القرن الرابع الهجرى ثم بدأ قوم يدخلون فى الدين ما لم يكن فيه « كأن نبينا ترك لنا دينا ناقصا فهم أكملوه » •

ويلقى الكواكبى التبعة فيما دخل على الدين من الخــرافات والزيف والبطلان والبدع — على العلماء وهـــو ينحى باللائمة على المتشددين من العلماء مثلما يحمل فى شدة على المتهادنين منهم فلا تفريط ولا افراط • ففى الحديث هلك المتنطعون أى المتشددون فى الدين •

وعند بدء الاجتماع الخامس للجمعية قرر رئيسها تفويض لجنة لوضع مشروع قانون لجمعية دائمة واقترح ان ينضم لعضـــوية هذه اللجنة من له خبرة من الأعضاء بقوانين الجمعيات العلمية ونظمها وعين لوظيفة سكرتير هذه اللجنة السيد الفراتى وضمت العضــو الهندى والتركى والمصرى والعضو المسلم من بلاد الانجليز •

ثم تمضى الجمعية فى مناقشاتها تاركة للجنة المتفرعة منها أن تحدد مواعيد اجتماعاتها الخاصة . ويمضى الكواكبى يقص علينا على لسان العضو النجدى (من أهل نجد) كيف ان أصول الدين الاسلامى بل بعض فروع الشريعة الاسلامية متفق عليها لأن لهنا فى القرآن والسنة أحكاما صريحة قطعية الثبوت . أما الخلافات فهى فى فروع تلك الأصول وفى بعض الأحكام التى ليس لها فى القرآن أو السنة نصوص صريحة .

ونجد الكواكبى يثنى الثناء كله على أهل الجزيرة العربية الذين ما زالوا على مذهب السلف فى الدين بعيدين عن التفنن فيه يتبعون أصول اجتهاد الامام زيد بن على زين العابدين (الزيديين) أو أصول الامام أحمد بن حنبل ويمدح العلماء عند أهل الجزيرة فالعالم عندهم من اتصف بصفات خمس : الماما باللغة العربيـــة المضرية القرشية ، قارئا لكتاب الله تعالى قراءة فهم متعمقا فى معانيه متضلعا فى السنة النبوية ، واسع الاطلاع وصاحب عقل سـليم فطرى لم يفسد ذهنه المنطق والجدل والفلسفة اليونانية وما اليها وهم (العلماء) لا يقلدون الا بعد الوقوف على دليل من يقلدون يأخذون من القرآن احكامه ثم ما لم يجدوه فى كتاب الله أخذوه من صحيح سنة رسول الله . فاذا لم يجدوا فى المسألة حديثا أخذوا باجماع علماء الصحابة .

والكواكبى فيما يقول متفق تماما مع ما جاء به ابن تيميه الذى رأى ان الشريعة الاسلامية أصلها القرآن والسنة ورأى أن ترجع أحكام الشريعة اليهما وحدهما دون غيرهما فان لم يوجد فى الكتاب والسنة ففى أقوال الصحابة والتابعين . وكان يرى الاقتصاد على طبقات ثلاث بعد النبى هى طبقة الصحابة وتابعيهم ثم تابعى التابعين فقط دون غيرهم .

وإذا كان ابن تيميه قد قال بأنه لا ينبغي ان نقلد اماما في موضع سنة عرفناها وأورد قول الامام مالك انما أنا بشر أصيب وأخطيء ، كذلك قال الكواكبي (وهو يثني على أهل الجزيرة العربية حيث يرفض العلماء ان يفتوا في مسألة مطلقا ما لم يذكروا معهـا دليلها من الكتاب أو السنة أو الاجماع) ـ أن الامام مالك رضي الله عنه كان يقول ما من أحد الا وهو مأخوذ من كلامه ومردود عليه الا رسول الله ٠

وأورد الكواكبي عبارة قالها ابن تيميه للامام الشافعي هـــذا رأيي فان صح الحديث فاضربوا بقولي عرض الحائط ٠ كما أورد عبارات لابن حنبل وأبي حنيفة يدعوان الناس فيها الى أن يكون أساسهم القرآن والحديث ٠

ويخلص الكواكبي من ذلك مثلمـــا خلص ابن تيمية الى أن الشريعة الاسلامية أصلها القرآن وان نبي هذه الامة قد فسر القرآن وان الذين تلقوا ذلك التفسير هم الصحابة ثم نقلوها الى التابعين٠

كان الكواكبي في بحثه ذلك يريد القول ان الدين الاســلامي ينبغي أن ينقى من كل ما علق به من شوائب ومن كل مادخله من بدع واضاليل من جانب أقوام أصبحوا أصحاب طرق دينية وصوفيــة أساءوا الى هذا الدين ولم يفيدوه في شيء ٠

والكواكبي حين يحمل على الطرق الصوفية لا يكره التنسك الذي كان شيمة لأكثر الصحابة والتابعين وانما هو يحمل عـلى هؤلاء الذين اتخذوا من التصوف مهنته واستغلوا جهل العـــامة فأصبح لهم (لأصحاب الطرق الصوفية) مقاما كمقام النبوة بل الالوهية بما ادعوه من قوة قدسية وتصرف في ملكوت الله ٠ وأتوا بخزعبلات وتأويلات وخيالات وأوهام وألفوا الكتب الكثيرة المحشوة بالأكاذيب والقضايا والتركيبات الغير مفهومة ٠

يرى الكواكبى ان الاسلامية كانت سمحاء خالصة من شوائب الزوائد والتشديد لأن الاسلامية التى هى أحكام القرآن وما ثبت من السنة وما اجتمعت عليه الأمة فى الصدر الأول ليس فيها ما يأباه عقل أو يناقضه تحقيق علمى . ثم هـــو يقول لو فهمنا الدين الاسلامى على بساطته لم نصل الى اصلاح حالنا فحسب ، بل لجذبنا اليه كثير من غير المسلمين المتنورين الاحرار فجعلناهم يتبعون هذا الدين وحفظنا كثيرا من أبناء المسلمين من هجرهم لهذا الدين الذى أسأنا اليه لتشددنا تشديدات مبتدعة .

ثم هو يورد بحثا تاريخيا على لسان العضو التبريزى (من تبريز) يوضح ان الاسلام تعرض لفتنتين كبيرتين : الأولى التنازع على الخلافة والملك فتفرق المسلمون فى الدين لتفرقهم فى السياسة وهو بهذا يشير الى الفتنة التى بدأت تواجه المسلمين بعد مقتـــل عثمان والصراع بين أنصار على ومعاوية .

أما الفتنة الثـــانية فهى ما شهده المسلمون على عهـد الخلافة العباسية حين اتسعت شقة الخلاف فى المذاهب بين المسلمين حتى استحال الرجوع الى الفروع ولا الى الاصول فاطمأنت الامة الى التقليد وصار أبناؤها يحسنون الظن فى كل ما يجدونه مدونا بين دفتى الكتاب لأنهم رأوا التسليم أهون من التبصر وصار أهل كل اقليم يتعصب لمؤلفات شيوخهم ويتخذون الخلافات مدارا لتطبيق الاحكام على الهوى . وأصبح اختلاف الامة سببا للتفرقة الدينية والتباغض بين المسلمين .

وما أسوأ التعصب وما أضره على الاسلام والمســلمين ، يرى الكواكبى ان التعصب هو آفة الآفات لهذه الامة الاسلامية فقـــد خالف المسلمون قول الله تعالى أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه .ويدعو الكواكبى علماء الهداية والمخلصين لدينهم أن يقاوموا فكرة التعصب

لمذهب دون الآخر فيكون سعيهم منتجا للتأليف وجمع الكلمة في الأمة ٠

ويبدأ الأعضاء منذ اجتماعهم السابع في الاستماع الى تلخيص للأسباب التي أبدوها لفتور الأمة الاسلامية يقوم بالقائها السيد الفراتي (كاتب الجمعية) ٠

ويرجع الكواكبي الاسباب الى أمور دينية وأخرى خلقيةوثالثة سياسية ٠ وكل سبب من هذه الاسباب منها أصول وفروع ترمز للأصول بحرف أ وللفروع بحرف الفاء من الأصول في الأسباب الدينية ٠

١ ــ تأثير عقيدة الجبر على أفكار الامة ٠

٢ ــ تأثير فتن الجدل في العقائد الدينية ٠

٣ ــ الاسترسال للتخالف والتفرق في الدين ٠

٤ ــ الذهول عن سماحة الدين وسهولة التدين به ٠

٥ ــ تشديد الفقهاء المتأخرين في الدين خلافا للسلف ٠

٦ ــ ادخال العلماء المدلسين والمغايرية على العامة كثيرا من الأوهام ٠

٧ ــ ادخال العلماء المدلسين على الدين مقتبسات كتابية وخرافات وبدعا مضرة ٠

٨ ــ ايهام الدجالين والمداجين ان في الدين أمورا سرية وأن العلم حجاب ٠

٩ ــ اعتقاد منافاة العلوم الحكمية والعقلية للدين ٠

١٠ ــ الغفلة عن حكمة الجماعة والجمعة وجمعية الحج ٠

ومن الفروع في هذا الباب

١١ ــ تهوين غلاة الصوفية الدين وجعلهم اياه لهوا ولعبا ٠

١٢ ـ افساد الدين بتفنن المداجين بمزايدات ومتروكات وتأويلات .

١٣ ـ التعصب للمذاهب ولآراء المتأخرين وهجر النصوص ومسلك السلف .

١٤ ـ العناد على نبذ الحرية الدينية جهلا بميزتها .

١٥ ـ تطرق الشرك الخفي أو الصريح الى عقائد العامة .

وأما الأسباب السياسية فتتضمن مسائل أساسية (أصولا) وأخرى فروعا فمن الأصول :

١ ـ السياسة المطلقة من السيطرة والمسئولية .

٢ ـ حصر الاهتمام السياسى بالجباية والجندية فقط

٣ ـ اعتبار العلم عطية يحسن بها الأمراء على الأخصاء وتفويض خدم الدين للجهلاء .

٤ـ قلب موضوع أخذ الاموال من الاغنياء واعطائها للفقراء (يقصد الكواكبى بذلك عدم الاخذ بتشريع الزكاة فانقلبت الآية فأصبحت الاموال تؤخذ من الفقراء لتعطى للأغنياء) .

٥ ـ ابعاد الأمراء والنبلاء والأحرار وتقريبهم المتملقين والأشرار .

ومن فروع هذا الباب

١ ـ فقدان قوة الرأى العام بالحجر والتفريق .

٢ ـ مراغمة الامراء السراة والهداة والتنكيل بهم .

٣ ـ فقدان العدل والتساوى فى الحقوق بين طبقات الأمة .

٤ ـ ميل الامراء طبعا للعلماء المدلسين وجهلة المتصوفين

ثم تأتى بعد ذلك الأسباب الخلقية :

من الأصول :

١ ـ الاستغراق فى الجهل والارتياح اليه

٢ ـ انحلال الرابطة الدينية والاحتسابية

٣ ـ التباعد فى المكاشفات والمفاوضات فى الشئون العامة ٠

٤ ـ فقدان التناصح وترك البغض فى الله ٠

ومن الفروع :

١ ـ غلبة التخلق بالتملق تزلفا وصغارا ٠

٢ ـ اهمال طلب الحقوق العامة جنبا وخوفا من التخاذل

٣ ـ فساد التعليم والوعظ والخطابة والارشاد ٠

ولم نشأ ان نأتى بحصر شامل بكل ما ذكره الكواكبى من أسباب سـواء ما جاء منها فى باب الأصول أو الفروع وانمـا اكتفينا بذكر بعضها تمشيا مع ما مضينا فيه من الحديث فى هـذا الفصل وهو عرض شامل وعام لكتاب أم القرى ونحيل القـارىء الكريم للرجوع الى هذا الكتاب كى يلم بكل الاسباب التى جـاء بها الكواكبى ولخص فيها أسباب الانحطاط النازل بالأمة الاسلامية٠

وبعـد أن عرض الكواكبى لهـذه الأسباب تنـاول بالذكر والتخصيص دور العثمانيين فى تدهور الأمة الاسلامية ٠

انتقد الكواكبى فى شدة سياسة الدولة العثمانية وادارتها لاقاليمها ، فهو يرى أن الخلل جاء للدولة فى الستين سنة الاخيرة (السابقة على وضعه لكتابه) وذلك حين اندفعت الدولة لتنظيـم أمورها فهو يرى ان الدولة عطلت أصولها القديمة ولم تحسـن التقليد ٠ ونراه فى موضع آخر من كتابه يحمل على التنظيمـات الخيرية (وهى المراسيم السلطانية التى صدرت على عهد السلطان عبد المجيد سنة ١٨٥٦ على زعم أنها حركة اصلاحية أقدمت عليهـا

الدولة » • فهو يرى ان الدولة العثمانية بعد صدور هذه التنظيمات اطلقت يد الولاة فى الاقاليم وتعمدت ان تختار لحكم هذه الاقاليم الولاة الذين لا يحبهم المحكومون حتى لا يتفق هؤلاء الولاة مع من ولوا عليهم ضد الدولة •

وللكواكبى رأيه المعروف فى العثمانيين فهو يحمل عليهم لأنهم هضموا حقوق العرب فى المناصب برغم أنهم يكونون ثلثى الدولة ويرى ان العثمانيين فشلوا سياسيا واداريا بسبب الاظر ـ الكثيرة لهم وللشعوب التى يحكمونها من اصرارهم على اتباع قوانين موحدة فى الادارة والعقوبات بالرغم من تباين الاجناس فى الدولةواختلاف طبائعها وعاداتها • وهم يتبعون السياسة المركزية مع ما فيها من الاضرار ويضعون من القوانين ما يتعارض مع أصول الشرع الاسلامى • ومن أشد الأمور التى جعلت الكواكبى ينتقد السياسة العثمانية اتباعها لسياسة الكبت والاستبداد فهو يرى ان الضغط يولد الانفجار وينتج عنة الحقد على الادارة (١) وهو يرى أن العثمانيين يديرون الدولة ادارة مداراة واسكات للمطلعين على معايبها حذرا من أن ينفثوا ما فى الصدور فتعلم العامة حقائق الامور « والعامة من اذا علموا قالوا ، واذا قالوا فعلوا وهناك الطامة الكبرى » •

وبعد أن يعرض السيد الفراتى هذه النواحى فى سياسة الدولة العثمانية على أعضاء الجمعية يضيف اليها أسبابا أخرى شتى يرى ان لها دورها فى تدهور أمور المسلمين على عهد العثمانيين منها عدم تطابق الأخلاق بين الرعية والرعاة وعدم الاعتناء بتعليم النساء •

---

(١) كان انتقاد الكواكبى لسياسة الاستبداد التى اتبعتها الدولة العثمانية وأفعاله دائما له لوضع كتاب طبائع الاستبداد على نحو ما سنتناول وذلك فيما بعد•

وكان الحض على تعليم المرأة من أهم الأمور التى عالجها الكواكبى فى الناحية الاجتماعية وجاءت دعوته سابقة على كل من جاءوا بعده يدعون لتعليم المرأة الشرقية فى العصرالحديث : « ان لانحلال أخلاقنا سببا مهما آخر يتعلق بالنساء وهو تركهن جاهلات على خلاف ما كان عليه أسلافنا حيث كان يوجد فى نسائنا كأم المؤمنين عائشة رضى الله عنها التى أخذنا عنها نصف علوم ديننا وكمئات من الصحابيات والتابعيات راويات الحديث .. ففى ذلك حجة دافعة ترغم أنف غيرة الذين يزعمون أن جهل النساء أحفظ لعفتهن فضلا عن أنه لا يقوم لهم برهان على ما يتوهمون حتى يصح الحكم ان العلم يدعو للفجور وان الجهل يدعو للعفة . نعم ربما كانت العالمة أقدر على الفجور من الجاهلة ولكن الجاهلة أجسر عليه من العالمة . ثم ضرر جهل النساء وسوء تأثيره فى أخلاق البنين والبنات أمر واضح غنى عن البيان » .

ويرى الكواكبى ان أحد الاسباب الرئيسية فى فشل العثمانيين فى مجال السياسة هو عدم تجنسهم بجنسية رعاياهم ولما كانت غالبية هذه الرعية عربا فانه كان الواجب على الأتراك أن يستعربوا مثلما فعل آل محمد على وغيرهم . ويورد بعضا من الفاظ السباب التى يطلقها الاتراك على العرب الذين لايقابلون ذلك سوى بجملة جمعت فوعت » ثلاث خلقن للجور والفساد : القمل والترك والجراد .

ونراه حريصا قبل أن ينهى أعمال جمعيته على سرد شيئا من سيرة العثمانيين تجاه الدين الاسلامى والامم الاسلامية ويورد ذلك فى شكل رسالة جاءت للفراتى (كاتب الجمعية) من عضوها الهندى يسرد هذا العضو على الفراتى مناقشة دارت بينه وبين صديق له من أحد أمراء المسلمين . ويروى هذا الصديق على العضو

الهندى ما فعله العثمانيون فى الاســـلام والمسلمين وكيف انهم فضلوا الملك على الدين ·

« وأما سلاطين » آل عثمان الفخام فانى أذكر لك نموذجا من أعمال لهم أتوها رعاية للملك وان كانت مصادمة للدين فأقول هذا السلطان محمد الفاتح وهو أفضل آل عثمان قد قدم الملك على الدين فاتفق سرا مع (فرديناند) ملك (الاراغون) الاسبانيولى ثم مع زوجته (ايزابلا) على تمكينهما من ازالة ملك بنى الاحمرآخر الدولة العربية فى الاندلس ·· وهذا السلطان سليم غدر بآل العباس واستقصاهم حتى انه قتل الأمهات لأجل الاجنة **وبينما كان هو يقتل العرب فى الشرق** كان الاســـبانيون يحركون بقيتهم فى الاندلس ·· وقد سعوا (العثمانيون) فى انقراض خمسة عشر دولة وحكومة اسلامية منها انهم أغروا واعانوا الروس على التتار المسلمين وهولانده على الجاوة والهولنديين وتعاقبوا على تدويخ اليمن فأهلكوا الى الآن عشرات الملايين من المسلمين ·· » ·

وقبل أن تنهى جمعية أم القرى اجتماعها أقرت قانونا بانشاء جمعية تعرف بجمعية تعليم الموحدين من مائة عضو منهـــم عشرة عاملون وعشرة مستشارون وثمانون فخريون واشترط فى الأعضاء العاملين والمستشارين عدة صفات أهمها المقدرة على التكلم والكتابة بالعربية · ومهمة الجمعية الا تتدخل فى السياسة وانما مهمتهـــا تعليم القراءة والكتابة والترغيب فى العلوم **واصلاح أصول تعليم اللغة العربية** ·

وكان الكواكبى يرى ان أحد أسباب اعراض الناس عن تعلم اللغــــة العربية هو سوء الكتب الموضوعة لهذا الغرض والمحشوة بأشياء صعبة على المبتدىء فى تعليم هذه اللغة · وللجمعية مهمتها فى المجـــال الدينى وهو نشر بحوث شــهرية فى الأمور الدينيـــة تستهدف تعليم المسلمين أصول دينهم الصحيحوبين السلفالصالح

وتهتم الجمعية باعداد تلامذتها كي يكونوا مرشدين ومبعوثين في البلاد الاسلامية المختلفة • (١)

وبعد انتهاء جمعية أم القرى من اقرارها لانشاء جمعية تعليم الموحدين اتخذت عدة قرارات سرية ولم تدع من قراراتها سوى قرار واحد هو في نظرنا من أهم الامور التي نادى بها الكواكبي •

ينادي الكواكبي على لسان جمعيته بأن **الجزيرة العربية وأهلها هما مناط الامل في النهضة الدينية** • نفس الجزيرة العربية وهي مشرق النور الاسلامي الكعبة المعظمة التي يحج اليها المسلمون من كل فج عميق وان دين أهلها هو الدين الحنفي السلفي البعيد عن التشويش •

وبعد أن يثني الكواكبي على عرب الجزيرة لحرصهم على الدين والحرية والاستقلال يثني الثناء كله على العرب فلغتهم أغنى لغات المسلمين في المعارف مصونة بالقرآن الكريم والعرب أقدم الأمم اتباعا لأصول تساوي الحقوق وأعرفهم في أصول الشورى وأنسب الأقوام لأن يكونوا مرجعا في الدين • فلهذه الأسباب قررت جمعية أم القرى أن تعتبر العرب هم الوسيلة الوحيدة لجمع الكلمة الدينية بل الكلمة الشرقية •

وحين يخلص الكواكبي من جمعيته التي تخيل عقدها من ممثلين للأمة الاسلامية على أن العرب هم خير من ينبغي أن يئول اليهم أمر هذا الدين والحفاظ عليه يرى ان يكون الخليفة الاسلامي عربيا قرشيا كسابق عهده في صدر الاسلام فلما خرج الامر من العرب صار الأمر الى غير أهله واعوج أمر المسلمين •

وتلك كانت أعظم ما دعا اليه الكواكبي • فهو يدعو العرب الى اليقظة وان ينهضوا ليباشروا أمور الدين الاسلامي ، وكأنه

---

(١) أخذ رشيد رضا بنفس الفكرة وأسس مدرسة للدعوة والارشاد سنة ١٩١٢ في القاهرة •

يريد أن يقول لهم ان هذه هي رغبة المسلمين في كل أنحاء العالم فكونوا عند حسن ظنهم ولا تتركوا أمور الدين لغيركم فالاتراك قد ضيعوا الدين وأهله « أليس الترك قد تركوا الأمة أربعة قرون ولا خليفة وتركوا الدين تعبث به الاهواء ولا مرجع وتركوا المسلمين صما بكما عميا ولا مرشد » .

وقال الكواكبي أنه غير متعصب للعرب انما يرى ما يراه كل حر مدقق يتفحص الامر ويصل الى العلاج ، ولا علاج الا بأن يناط بالعرب مهمة حماية الدين الاسلامي وزعامة أمر المسلمين .

وسيظل التاريخ يذكر ان دور الكواكبي كان عظيما في نفوس ناشئة العرب قبل ثورة ١٩٠٨ وما بعدها اذ كان شباب العرب يتهافتون على كتابيه أم القرى وطبائع الاستبداد ويقبلون عليهما اقبال الظمآن على الماء القراح ويتخذونهما انجيلا لنهضة العرب الاصلاحية .

الفصل السادس

الكواكبي والاستبداد

من المعروف أنه ما كاد الكواكبى يترك حلب مسقط رأسـه ليستقر به المقام فى مصر حتى بدأت الصحف فيها وفى مقدمتها المؤيد تنشر مقالاته التى حمل فيهـا على الاستبداد ودعاته • لقـد آلى الكواكبى أن يكون حربا عوانا على المستبدين من حكام المسلمين وفى مقدمتهم بطبيعة الحال خليفة المسلمين أمثال السلطان عبد الحميـد الثانى • فلم يعرف التاريخ الحديث عهدا شهدت فيه البلاد العربية خنقا للحريات ولا استبدادا أسوء مما كان فى عهده •

هاجم الكواكبى المستبدين وطريقتهم وفلسفتهم فى الحكم واذا كان الكواكبى قد اطلع صـديقه وصفيه كامل الغزى على مشروع كتابه الذى أسـماه أم القرى وأنه (الغزى) كان يعرف أنه جدير بالنشر ، فان الكواكبى لم يطلعه على كتابه طبائع الاستبداد • يقول الغزى وبعد أن أمضى على مبارحته حلب نحو بضعة عشر يوما لم نشعر الا وصدى مقالاته فى صحف مصر ، وأخذت جريدة المؤيد تنشر له تفرقة « كتاب طبائع الاستبداد » الذى لم يطلعنا عليه مطلقا بخلاف كتاب جمعية ام القرى فقد اطلعنا عليه مرارا • ثم انه طبع الكتابين المذكورين وقام لهما فى (المابين) (١) السـلطانى ضجة عظيمة ،

---

(١) كان السلطـان عبد الحميد الثانى بعد أن سرح مجلس المبعـوثين سنة ١٨٧٨ وعطل العمل بالدستور قد جعل ديوانه فى قصر يلدز الفخم وحشد فيـه مستشاريه ومرافقيه وهذا الديوان كان يقوم صلة الوصل بينه وبين الباب العالى=

وصدرت ارادة السلطان بمنع دخولهما الى الممالك العثمانية ، بيد أنهما رغما عن ذلك كله وصلا الى حلب على صورة خفية وقرأناهما فى سمرنا المرة بعد المرة •

ويذكر الأستاذ ابراهيم سليم النجار فيما كتبه عن الكواكبى أنه (الكواكبى) تعرف بالأستاذ على يوسف فى مصر والسيد رشيد رضـــا صاحب مجلة المنار فتمكنت بينهما روابط الصداقة والمودة « فكنا نجتمع كل مساء فى حلقتنا المعروفة فى القاهرة » (١) •

كان هذا اللقاء يتم فى مقهى سبلندوبار بالقاهرة حيث كان يضم هذا الملتقى عددا من الأخوان السوريين الذين جاءوا الى مصر قبل الكواكبى وبعده وكان فرارهم الى مصر من أجـــل العمل على تخليص بلادهم من الحكم العثمانى المستبد •

لقد استهدف الكواكبى من كتابه ، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد ، أن تكون صيحة تفعل فعلها فى ايقاظ النفوس وبث الهمم وكان يوقن ان اليقظـة العربية لا تتم بين يوم وليـلة وانما تحتاج الى وقت من الزمن فما على المصلحين الا أن يبذروا ليجنى من يأتى بعدهم ثمار غرسهم • وهذا ما قصده الكواكبى من تلك الكلمة التى وصف بها كتابه طبائع الاستبداد « وهى كلمات حق وصيحة فى واد ، ان ذهبت اليوم مع الريح ، لقد تذهب غدا بالأوتاد » •

كان الكواكبى يستهدف أن تدفع كلماته الزعماء والمصـلحين للأخذ بيد الأمة للنهوض بها يعلمونها بحالتها السيئة وانه بالامكان تبديلها بخير منهـــا ، فاذا هى علمت يبتدأ فيهـا الشعور بآلام الاستبداد ، ثم يترقى هذا الشعور بطبعه من الآحاد الى العشرات ••

= (مجلس الوزراء) فسمى بالمابين اختصارا للفظة العربية ما بين السلطان والباب العـــالى •

(١) مجلة الحديث سنة ١٩٤٠ العدد الخامس •

حتى يشمل أكثر الأمة وينتهى بالتحسس ويبلغ بلســـان حالها الى منزلة قول الحكيم المعرى ·

اذا لم تقم بالعدل فينا حكومة

فنحـــن على تغيـــيرها قدراء

أى أن الكواكبى كان يؤمن ان كلماته وان لم تفعل فعلها فى زمنه فان الأيام كفيلة لها بأن تفعل فعلهـــا وان تحقق ما رماه من ورائها ، « وهكذا ينقذف فكر الأمة فى واد ظاهر الحكمة يســـير كالسيل لا يرجع حتى يبلغ منتهاه » ·

وكان ما ارتآه الكواكبى وحدثت تطورات كثيرة بعد موته لكنها بفضله · فى سنة ١٩٠٨ أجبر السلطان عبد الحميد على اعادة العمل بالدستور (١٩٠٨) فلما حاول أن ينكث بيمينه الذى أقسمه على عدم ابطال الدســتور ، انتهى الأمر بخلعه عن العرش (١٩٠٩) · وكان للعرب فى كل من الحركتين دور كبير وفضــل بارز · فلما انقلب الاتحـاديون على العرب ومضـــوا يتبعون سياسة التتريك تحرك الثوار العرب تارة بالمؤتمرات وأخرى بالجمعيات · ثم كانت المشانق التى علقها جمال باشا (السفاح) ابان الحرب العالمية الاولى لزعماء الحـــركة العربية ايذانا بانفجـار الموقف * فلقد ظلت كلمات عبد الغنى العريسى وهو يصعد الى المشنقة تتردد فى آذان العرب · « بلغوا جمال باشا ان الملتقى قريب وان أبناء الرجال الذين يقتلون اليوم سيقطعون فى المستقبل بسيوفهم أعناق أبنائك الأتراك · ان الدول لا تبنى على غير الجمــاجم · وان جماجمنــا ســتكون أساسا لاستقلال بلادنا » ·

وزادت الهوة عمقا وبعدا بين العرب والترك · وأخذ أعضــاء الجمعيات العربية ممن لم يكتشف أمرهم يتصلون بالشريف حسين

شريف مكة يتداولون معه في الأمر ويعدون العدة لثورة مقبلة تحدد الموقف • ثم كانت الثورة العربية ابان الحرب العالمية الأولى والتى أثرت على مجرى الأحداث تأثيرا كبيرا وآذنت بانفصام عرى وحدة سياسية جمعت بين العرب والأتراك فى امبراطورية واحدة أكثر من ستة قرون •

كانت صيحة الكواكبى اذا حين تصدى لاستبداد الأتراك بداية صرخة كبرى فى وجه الظلم والطغيان الذى شهدته البلاد العربية على عهد العثمانين •

يبدأ الكواكبى كتابه طبائع الاستبداد بعد حمد الله والصلاة على نبيه أنه حين جاء الى مصر وجد أفكار سراة القوم فيها كما فى سائر الشرق تبحث فى أسباب انحطاط المسلمين وماهو الدواء • واذا كانت الأفكار قد ضلت فى معرفة السبب وبالتالى فى ذكر العلاج فان الكواكبى يبادر للقول ان الاستبداد السياسى هو أصل الداء ويؤكد انه لم يذكر ذلك الا بعد بحث جاوز الثلاثين عاما ودراسة وتمحيص كادت تكلفه حياته • وأنه حين جاء الى مصر نشر الأبحاث فى هذا المجال فى أشهر جرائدها ثم جمعها فى كتاب فلما عاد من رحلته الى البلاد العربية وجد الكتاب قد نفد فى برهة قليلة فلما انتهت أسفاره (١٩٠٢) وجاء الى مصر أعاد النظر فى كتابه فزاد فيه واختصر • كما يؤكد أنه لم يقصد حكومة معينة وانما قصد التنبيه الى مورد الداء الدفين فى أمته العربية عسى أن يعرف الذين قضوا نحبهم أنهم هم المتسببون لما حل بهم ، فلا يعتبون على الأغيار ولا على الأقدار وانما يعتبون على الجهل وفقد الهمم والتواكل وعسى الذين فيهم بقية رمق من الحياة يستدركون شأنهم قبل الممات •

ويبدأ الكواكبى مقدمة كتابه بذكر أهمية بحثه هذا فليس للعرب فى ماضيهم أبحاث مستقلة فى السياسة على عكس الأمم

الأوربية · واذا استثنينا بعض ماكتبه ابن خلدون أو رفاعة الطهطاوى وخير الدين التونسى فانه يمكن القول ان جهود العرب فقيرة فى هذه الناحية · ويدعو الكواكبى الى البحث فى موضوع الاستبداد ما هو وما أسبابه ثم ما اعراضه وما هو علاجه · وتلك هى العناصر الرئيسة فى كتابه ·

يعرف الكواكبى الاستبداد لغويا بأنه غرور المرء برأيه والأنفة عن قبول النصيحة · ثم هو فى اصطلاح السياسيين تصرف فرد أو جمع فى حقوق قوم بالمشيئة وبلا خوف تبعة · ثم هو يقصر وصفه للاستبداد على الحكومة المطلقة العنان فعلا أو حكما التى تتصرف فى شئون الرعية كما تشاء بلا خشية حساب ولا عقاب · وأشد مراتب الاستبداد عند الكواكبى هى حكومة الفرد المطلق الوارث للعرش القائد للجيش الحائز على سلطة دينية ويرى أن دعائم الحكم المستبد جهل الأمة وجند الحاكم وجيشه ثم يورد بعض أقوال الحكماء فى وصف الاستبداد ومن ذلك قولهم ·

المستبد يتحكم فى شئون الناس بارادته لا بارادتهم ويحكمهم بهواه لا بشريعتهم ويعلم من نفسه أنه الغاصب المعتدى فيضع كعب رجله على أفواه الملايين من الناس يسدها عن النطق بالحق والتداعى لمطالبته ·

المستبد عدو الحق وعدو الحرية وقاتلهما والحق أبو البشرية والحرية أمهم والعوام صبية أيتام نيام لا يعلمون شيئا والعلماء هم أخونهم الراشدون ··

المستبد يتجاوز الحد مالم ير حاجزا من حديد فلو رأى الظالم على جنب المظلوم سيفا لما أقدم على الظلم كما يقال : الاستعداد للحرب يمنع الحرب ·

المستبد انسان مستعد بالطبع للشر وبالالجاء للخير فعلى الرعية أن تعرف ماهو الخير وماهو الشر فتلجئ حاكمها للخير رغم طبعه ٠

المستبد يود أن تكون رعيته كالغنم درا وطاعة وكالكلاب تذللا وتحلقا وعلى الرعية أن تكون كالخيل ان خدمت خدمت وان ضربت شرست وعليها ان تكون كالصقور لاتلاعب ولا يستأثر عليها بالصيد كله ٠٠ **نعم على الرعية أن تعرف مقامها هل خلقت خادمة لحاكمها تطيعه ان عدل أو جار وخلق هو ليحكمها كيف شاء بعدل أو اعتساف أم هي جاءت به ليخدمها لا ليستخدمها ٠**

وبعد أن يذكر الكواكبى أقبح أنواع الاستبداد فى نظره وهى استبداد الجهل على العلم واستبداد النفس على العقل ، يذكر فضل الهجرة فرارا من الاستبداد ٠ وكأنه يريد أن يقول لبنى قومه ان ضاقت عليكم أرضكم باستبداد السلطان عبد الحمد وتجبره فان أرض الله واسعة « ولاشك فى أن اعانة الظالم تبدأ من مجرد الاقامة فى أرضه » ٠

« ما أليق بالأسير فى أرض أن يتحول عنها الى حيث يملك حريته فان الكلب الطليق خير حياة من الأسد المربوط » ٠

ويتحدث الكواكبى فى الفصل الثانى من كتابه عن « الاستبداد والدين » فيفضح تستر المستبد تحت راية الدين وزعمه الغيرة عليه ٠ ويرى ان عدم فهمنا الدين فهما صحيحا أمر يجعلنا نعين المستبد على استبداده ٠ ونمكنه من أن يتخذ لنفسه بطانة من خدمة الدين يعينونه على ظلم الناس باسم الله ٠ ويخلص الى ان بين الاستبداد السياسى والدينى مقارنة وتلازم متى وجد أحدهما فى أمة جر اليها الآخر أو متى زال زال رفيقه ٠ ولذى يرى كل المدققين السياسيين أن السياسة والدين يمشيان متكاتفين ويعتبرون ان اصلاح الدين هو أسهل وأقرب طريق للاصلاح السياسى ، وجاء

الاسلام بعد اليهودية والنصرانية هادما للشرك واضعا لأسس الحرية السياسية وكان الحكم على عهد الخلفاء الراشدين الذين فهموا معنى ومغزى القرآن الكريم حكما قائما على المساواة والمشورة . ساوى الخلفاء الراشدون بين انفسهم وبين فقراء الأمة فى نعيم الحياة وشظفها . كما اتسم حكمهم بالمشورة التى دعا اليها كتاب الله الحكيم . فالقرآن ملىء بالآيات التى تمنت الاستبداد فى الرأى « يا أيها الملأ افتونى فى أمرى ماكنت قاطعة أمرا حتى تشهدون » « وقال الملأ من قوم فرعون ان هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون ؟ قالوا ارجه واخاه وارسل فى المدائن حاشرين يأتوك بكل ساحر عليم : « وشاورهم فى الأمر » ويقول الكواكبى :

ولولا حلم الله لخسف الأرض بالعرب حيث ارسل لهم رسولا من أنفسهم اسس لهم أفضل حكومة آسست فى الناس جعل قاعدتها قوله صلى الله عليه وسلم كلكم راع وكلكم مسئول عن رعية أى كل منكم سلطان عام ومسئول عن الأمة فجاء من المنافقين من حرف المعنى عن ظاهره وعموميته الى أن المسلم راع على عائلته ومسئول عنها فقط ... وكأن المسلمين لم يسمعوا قول النبى عليه السلام : الناس سواسية كاسنان المشط لافضل لعربى على عجمى الا بالتقوى . ومن هذه الأقوال السابقة يرى الكواكبى ان الدين الاسلامى هو دين العدل والمساواة والقسط والاخاء جعل اصول الحكم الشورى والاريستوقراطية أى شورى أهل الحل والعقد وجعل أصول ادارة الأمة التشريع الديموقراطى أى الاشتراكى .

ثم جاء من المسلمين من أخذوا من ليس فى دينهم فاقتبسوا التعظيم وطاعة الكبراء وحاكوا مظاهر القديس وقلدوا رجال الكهنوت فى مراتبهم وتميزهم فى البستهم وشعورهم . وبذلك فتحوا الباب للاستبداد وهيئوا الطريق للاستعباد .

ثم ينتقل الكواكبى الى قسم أو فصل آخر من كتابه بعنوان :
الاستبداد والعلم :

يحسن الكواكبى ويجيد الاجادة كلها حين يصف المســـتبد وسلوكه مع أمته التى هم قيم عليها : ما أشبه المستبد فى نسبته الى رعيته بالوصى الخائن القوى يتصرف فى أموال الأيتام وأنفسهم كما يهوى ما داموا ضعافا قاصرين ، فكمـــا أنه ليس من صـــالح الوصى أن يبلغ الأيتام رشدهم ، **كذلك ليس من غرض المســتبد أن تتنور الرعية بالعلم ٠**

ثم يعرف العلم بأنه « قبسة من نور الله وقد خلق الله النور كشافا مبصرا ولادا للحرارة والقوة ، وجعل العلم مثله وضـــاحا للخير فضاحا للشر يولد فى النفوس حرارة وفى الرءوس شهامة ٠ العلم نور والظلم ظلام ومن طبيعة النور تبديد الظلام » ٠

المستبد اذا فى رأى الكواكبى للعلم بالمرصاد يحاربه ويتصدى له ، واهم ما يخشـــاه المستبد علوم الحياة مثـل الحكمة النظرية والفلسفة العقلية وحقوق الأمم وطبائع الاجتماع والتاريخ والسياسة ونحو ذلك من العلوم التى تعرف الانسان حقوقه ٠ والمستبد وهو يخشى هذه العلوم يخاف من اصحابها العلماء العاملين الراشـــدين المرشدين لا من العلماء المنافقين ٠

وكأنى بالكواكبى يريد ان يقول للعلماء على عهد الســـلطان عبد الحميــد : لقد آندس فى صـــفوفكم الكثير من المنافقين الذين تملقوا السلطان فأصبح لا يخشاهم ولا يخاف بأسهم ، هم يتملقونه بما يخلعونه عليه من ألقاب وهو يقابل ذلك بانعاماته عليهم (١) ٠

---

(١) سبق آن اشار لذلك الكواكبى فى كتابه أم القرى ٠

والمستبد لا ترتاح نفسه لأن يرى وجه عالم عاقل وانما يختار الغبى المتصاغر المتملق ٠

وما أصدق الكواكبى حين يقول ان بين الاستبداد والعلم حربا دائمة وطرادا مستمرا ، يسعى العلماء فى تنوير العقول ويجتهد المستبد فى اطفاء نورها وكلاهما يتجاذبان العوام الى طرفهما ، فالعوام هو قوت المستبد وقوته اذا أفلتوا منه بالعلم خسر كل شىء ذلك لأنهم حين يتعلمون يفهمون حقيقة الحرية والعزة والشرف فلا سبيل الى العبودية والاستبداد ٠

ويصف خوف المستبد من رعيته فيرى ان خوف المستبد من نقمة رعيته أكثر من خوفهم بأسه ، لأن خوفه ينشأ عن علمه بما يستحقه منهم وخوفهم ناشىء عن جهل ، وكلما زاد المستبد ظلما واعتسافا زاد من خوفه من رعيته وحتى من حاشيته ، فالحاشية مطلعة على ظواهر المستبد وخفاياه ولذا فهى أكثر الناس تعرضا لبطشه ٠

وهناك فرق من وجهة نظر الكواكبى بين المستبد الغربى والشرقى ، فالأول يخاف العلم لأنه يهدى الشعب الى حقيقته وحريته فى حين ان المستبد الشرقى يخاف حتى من أوهام العلم ذاته ، ويخلص الى القول ان العلم لا يناسب حتى صغار المستبدين والحاصل انه ما انتشر نور العلم فى أمة قط الا وتكسرت فيها قيود الأسر وساء مصير المستبدين من رؤساء سياسة أو رؤساء دين ٠

ويمضى الكواكبى فى فصل جديد بعنوان **الاستبداد والمجد** يقدم لنا بحثا ممتعا كيف ان الاستبداد يغالب المجد فيفسده ويقيم مقامه التمجد ٠

واذا كان المجد أمرا طبيعيا تتوق اليه النفوس فان التمجد هو التقرب من المستبد فيصير الانسان مستبدا صغيرا فى كنف المستبد الأعظم والمتمجدون اعداء للعدل أعوان للظلم يمنحهم المستبد

الرتب والنياشين ليكونوا اعوانه وعيـونه ، يقصد المســتبد من **ايجادهم والاكثار منهم التمكن بواسطتهم ان يغرر بالأمة على اضرار نفسها تحت اسم منفعتها** • والخلاصة ان المستبد يتخذ المتمجدين سماسرة لتغرير الأمة باسم خدمة الدين أو حب الوطن أو توسيع مملكة •

ويفضـــل الكواكبى الحيـــاة الحـرة فاذا ما استحالت كان الاستشهاد والموت أفضل منها ويخالف ابن خلدون فى رأيه القائل بان من الخطأ اقدام البشر على الخطر اذا هدد مجدهم (١) • ومجد أسماء بنت أبى بكر لأنها جعلت ابنهـــا يقدم على الموت غير هياب فقالت له وهى تودعه : ان كنت على الحق فاذهب وقاتل الحجـاج حتى تموت •

ولما كان الناس على دين ملوكهم فان الحاكم المســتبد يجعل حكومته كلها مســـتبدة فى كل فروعهــا من أكبر موظف فيها الى أصغره « لأن الأسافل لا يهمهم طبعا الكرامة وحسن السمعة وانما غاية مسـعاهم ان يبرهنوا لمخدومهم بأنهم على شاكلته وانصــار لدولته » ، وهذه الفئة المستبدة من المستخدمين يكثر عددها ويقل حسب شدة الاستبداد وخفته ، فكلما كان المستبد حريصـــا على العسف احتاج لزيادة جيش المتمجدين العاملين له المحافظين عليه • **فوزير المستبد هو وزير المســتبد لا وزير الأمة كمـا فى الحكومات الدستورية ، كذلك القائد يحمل سيف المستبد ليغمده فى الرقاب بامر المسـتبد لا بامر الأمة** ، بل هو يســـتفيد من ان تكون الأمة صاحبة أمر لما يعلم من نفسه ان الأمة لا تقلد القيادة لمثله •

ويحمـــل الكواكبى على هؤلاء الاعوان الذين يزينـون الظلم للمستبد ثم يبررونه للناس وفى مقدمتهم أولئك المتعاظمين باسم

---

(١) احمد امين ـ زعماء الاصلاح فى العصر الحديث ص ٢٥٩

الدين يقولون للعامة : يابؤساء هذا قضاء من السماء لامرد له فالواجب تلقيه بالصبر والرضا • وفى مقابل هذه الروح الاستسلامية التى يبثها هؤلاء المتقربون من السلطان ، تنهال عليهم العطايا الكبيرة والرواتب الباهظة اضعاف ما تسمح به الادارة العادلة •

ولا يريد الكواكبى لبنى قومه أن يقنطوا ويستبد بهم اليأس من مقاومة المستبد • فالمستبد عنده فرد عاجز لا حول له ولا قوة الا بالمتمجدين • والأمة أى أمة كانت ليس لها من يحك جلدها غير ظفرها ولا يقودها الا العقلاء بالتنوير والاهداء والثبات ، **ثم يقيض الله لها من بنيها أفرادا كبار النفوس قادة ابرارا يشترون** لها السعادة بشقائهم والحياة بموتهم حيث يكون جهادهم دينا واستشهادهم مثلا فهم خلقوا لذلك مثلما خلق الفاسق الفاجر للتهالك على الشهوات والمثالب •

الاستبداد والمال :

وفى فصل جديد بعنوان الاستبداد والمال يقول الكواكبى « الاستبداد لو كان رجلا وأراد أن يحتسب وينتسب لقال : أنا الشر وأبى الظلم وأمى الاساءة وأخى الغدر وأختى المسكنة وعمى الضر وخالى الذل وابنى الفقر وبنتى البطالة وعشيرتى الجهالة ووطنى الخراب ، أما دينى وشرفى وحياتى فالمال المال » •

وما أظن ان تعبيرا أجمل من هذا التعبير الذى وصف به الكواكبى الاستبداد يمكن ان يحل محل هذا القول وهى الكلمات التى جمعت فوعت وأوجزت فشملت •

يرى الكواكبى أنه برغم ان النظام الطبيعى فى كل الحيوانات حتى فى السمك والهوام ان النوع الواحد منها لا يأكل بعضه بعضا فاذا بالاستبداد يحيى سنة أكل البشر فجعل الناس طعمة للظالمين المستبدين المستعمرين •

وما أجمل دعوة الكواكبي الى اشتراكية رقيقه رحيمة بالفقراء فهو بعد أن ينحى باللائمة على رجال السياسة الذين لا يفكرون فى ملايين الفقراء من رعيتهم ، كذلك يرى ان التجار الشرهين والمحتكرين يعيش الواحد منهم بمثل ما يعش به العشرات أو الألوف من الصناع والزراع • ثم يقول : **لا ! لا ! لايطلب الفقير معاونة الغنى ، انما يرجوه ألا يظلمه ، ولا يلتمس منه الرحمة ، انما يلتمس العدالة ، لا يؤمل منه الانصـــاف ، انما يسأله ألا يميته فى ميدان مزاحمة الحياة •**

وبعد أن يثني الثناء كله على دعوة الا يحتمل تخصيص عشر الأموال للمساكين ثم ما جاء به الاسلام من أن المال هو قيمة الأعمال يدعو الى العدالة الاجتماعية فيقول :

والعدالة المطلقة تقتضى أن يؤخذ قسم من مال الأغنياء ويرد على الفقراء وقد حقق الاســـــلام ذلك بالزكاة ومنعه التــواكل فى الارتزاق فليزم كل فرد من الأمة متى اشتد ساعده أو ملك قوت يومه أن يسعى لرزقه بنفسه كما قرر الاسلام **ترك الأراضى الزراعية ملكا لعامة الأمة يستنبتها ويستمتع بخيراتها العاملون فيها بأنفسهم فقط •**

وما أظن ان هناك دعوة للاشتراكية أفضل من تحقيق ذلك الذى دعا اليه الكواكبى وتمناه ، فهو يرى ان المعيشة الاشتراكية أبدع ما يتصوره العقل لكنه يتأسف ان البشر لم يبلغوا بعد من الترقى ما يكفى لتوسيعهم نظـــام التعاون والتضامن فى المعيشـــة العائلية الى ادارة الأمم الكبيرة •

ويرى الكواكبى ان احراز المال محمود اذا ما اقترن بشروط ثلاث :

أولاها : ان يكون احرازه من وجه حلال مقابل عمل أو في مقابل ضمان على ما تقوم بتفصيله الشرائع المدنيه ٠

الثاني : الا يكون في حيـــازته تضيق على الغـــير كاحتكار الضروريات أو مزاحمة الصناع والعمال الضـــعفاء أو التغلب على المباحات مثل امتلاك الأراضي التي جعلهـــا خالقها ممرحـــا لكافـــة مخلوقاته ٠

وهو يثني كل الثناء على تحديد الملكية فيشـــير الى ما اتبعته حكومة الصين على عهده حين منعت ان يمتلك الشخص الواحد أكثر من مقدار معين من الأرض نحو خمسة أفدنة مصرية ٠

أما الشرط الثالث الذى يرى الكواكبي ضرورة توفره لاحراز المال الا يكون على نحو يتجاوز قدر الحاجة بكثير لأن افراط الثروة مهلكة للأخلاق الحميدة ٠

ويخلص من ذلك الى ان أحراز المال لا يتوفر فيه هذه الشروط في عهد الحكومات المســـتبدة حيث يسهل فيها تحصـــيل الثروة بالسرقة من بيت المال وبالتعدى على الحقوق العامة وبغصب مافي أيدى الضعفاء ٠

والأغنياء ـ في نظر الكواكبي ـ أعوان المستبد وأوتاده وهم ربائطه يذلهم ويستدرهم أما الفقراء فان المســـتبد يخافهم خوف النعجة من الذئاب ٠

والكواكبي يخشى أن يفسر قوله بالتزهيد في المال أنه يثبط عن كسبه انما يقصد الا يتجاوز كسبه الطرائق الطبيعية الشريفة ٠ ويفرق بين الاستبداد في الحكومات الغربية والشرقية ٠ وهو يرى في الاستبداد الغربي بعض جوانب الرحمة واللين بعكس الاستبداد الشرقي فانه أكثر ازعاجا من الغربي وعادة ما يخلف الاســـتبداد

الغربي حكومة عادلة بعكس المستبد في الشرق فانه اذا ما انتهى حكمه عادة ما يخلفه مستبد اسوء منه ٠

ويخلص الى القول آن الاستبداد أشد وطأة من الوباء أكثر هولا من الحريق أعظم تخريبا من السيل ، اذل للنفوس من السؤال داء اذا نزل بقوم سمعت ارواحهم هاتف السماء ينادى القضاء القضاء والأرض تناجي ربها بكشف البلاء ٠ الاستبداد عهد أشقى الناس فيه العقلاء والأغنياء وأسعدهم الجهلاء والفقراء بل أسعدهم أولئك الذين يتعجلهم الموت فيحسدهم الأحياء ٠

وينتقل الكواكبى من حديث الاستبداد والمال الى فصل آخر بعنوان :

الاستبداد والأخلاق ونظريته التى تبناها فى هذا المجال هى ان الاستبداد يفسد الأخلاق ويدفع الى الحقد ويضعف حب الوطن لأن الفرد غدا آمن فيه يود لو انتقل منه ويضعف من حبه لأسرته لأنه لا يطمئن على دوام علاقته معها ٠

ويمضى الكواكبى يوضح ان أسوء آثار الاستبداد هى افسادها الأخلاق ٠ فالأخلاق عنده « ثمار بذرها الوراثة وتربتها التربية وسقياها العلم والقائمون عليها هم رجال الحكومة » ٠

وأقل ما يؤثره الاستبداد فى أخلاق الناس أنه يرغم حتى الأخيار منهم الى على ألفة الرياء والنفاق فيفقدون الثقة فى أنفسهم وفى غيرهم ٠ ويرى الكواكبى ان الأبحاث كثرت فى الآونة الأخيرة فى شأن داء الشرق فمن قائل ان سببه فقد التمسك بالدين وآخر يقول آن سببه الجهل وهو يرى ان السبب الأول والهام هو الاستبداد الذى أفسد الأخلاق ٠

وقد كانت مهمة الأنبياء عليهم السلام فى إنقاذ الأمم هى انقاذها من فساد الأخلاق بفك العقول من تعظيم غير الله والاذعان

لسواه وتبعهم في ذلك الحكماء السـياسيون الأقدمون فحرروا الضمائر واتبعوا طريق التربية والتهذيب . ثم يقارن بين أخلاق الشرقى والغربى ويرى فى أخلاق الشرقيين وعاءا يهم الاجتماعية كثيرا من الأمور التى تحتاج الى علاج . « قد يفضل فى الافراديات الشرقى على الغربى وفى الاجتماعيات يفضل الغربى على الشرقى مطلقا .. الغربى يعتبر نفسه مالكا لجزء مشاع من وطنه ، والشرقى يعتبر نفسه وأولاده وما فى يديه ملكا لأميره . الغربى له على أميره حقوق وليس عليه حقوق ، والشرقى عليه لأميره حقوق وليس له حقوق . الغربيون يضعون قانونا لأميرهم يسرى عليه والشرقيون يسيرون على قانون مشيئة أمرائهم . الغربيون قضاؤهم وقدرهم من الله والشرقيون قضاؤهم وقدرهم ما يصدر من بين شفتى المستعبدين .

ويرى الكواكبى أنه ما احوجنا الى ان ننبذ الكسل والهزل ونفقد العزم على الجد والعمل « افلا يكون الشرقى ابن الماضى والخيال بل ابن المستقبل والجد » .

ويتبع الكواكبى الحديث عن الأخلاق بالحديث عن الاستبداد والتربية فى قسم مستقل من كتابه .

الاستبداد عنده يؤثر على الأجسام فيسقمها وعلى الأخلاق فيفسدها ويضغط على العقول فيمنع نماءها بالعلم . من أجل هذا فان ماتبنيه التربية يهدمه الاستبداد . ونلمس من هذا البحث آراء سبق بها الكواكبى غيره كمصلح اجتماعى . هو يرى ان التربية ملكة تحصل بالتعليم والتموين والقدرة والاقتباس واهم أصولها وجود المربين واهم فروعها وجود الدين . والاستبداد مفسد للدين فى أهم قسميه أى الأخلاق .. وفى رأيه أن العبارات صارت فى الأمم المستعبدة عبارة عن عبارات مجردة وعادات لا تفيد فى تطهير النفوس شيئا ومن أجل هذا يخافها المستبد .

والحكومات العادلة تعنى بتربية النسل منذ الصغر فيعيش سعيدا ينعم بالحرية والعدالة نشيطا على العمل بياض نهاره وعلى الفكر سواد ليله فيكون ناعم البال ٠

واذا كانت هذه حياة الناس فى ظل الحكومات العادلة ، فان الحكومات المستبدة تبعث الحيرة وتميت الآمال وتفسد التربية ، فالناس يضطرون فى ظل الاستبداد الى استباحة الكذب والتحايل والخداع والنفاق والتذلل ونبذ الجد وترك العمل ، وكل حقوق الانسان فى عهد الحكومات المستبدة غير مأمونه أو مصانة بما فيها الدفاع عن العرض ، لا يجد الناس فى ظلها صحة ولا علما ولا غذاء فهم يألفون الشقاء والفقر ولا يستعطفون فى مطالبتهم بحقوقهم كأنهم طلاب صدقة ٠

ويخلص الكواكبى الى ان التربية السليمة غير مقصودة ولا مقدورة فى ظلال الاستبداد واذا فسدت التربية فسد الأفراد وفسدت الأمة والسبيل للاصلاح هو القضاء على الاستبداد أولا ثم بعد ذلك تكون العناية بالتربية ٠

ثم ينتقل الكواكبى فى فصل آخر للحديث عن **الاستبداد والترقى** ٠

فمن رأيه ان الترقى على أنواع منه الترقى بالجسم صحيا ، الترقى علما ومالا أو ترقية النفس بحثها على الخصال والمفاخر الحميدة وأرقى أنواع الترقى هو من يسعى الى ترقية الانسانية جمعاء ٠

والانسان من وجهة نظر الكواكبى لا يزال يسعى الى الرقى ما لم يعترضه مانع يسلب ارادته ، وهذا المانع اما القدر المحتوم أو الاستبداد المشئوم « على ان القدر قد يصدم سير الترقى لمحة ثم يطلقه فيكر راقيا ٠ أما الاستبداد فانه يقلب السير من الترقى الى الانحطاط ، من التقدم الى التأخر ، من النماء الى الفناء، ويلازم

الأمة ملازمة الغريم الشنحيح ويفعل فيهـا دهرا طويلا أفعاله التى تبلغ بالأمة حطة العجماوات فلا يهمها غير حفظ حياتها الحيوانية فقـط ، بل قـد تبيح حياتها هذه الدنيئة أيضا للاستبداد اباحة ظاهرة أو خفية » ٠

وهو يرى ان مهمة الحكماء كانت رفع الضغط عن العقـــول لينطلق سبيلها فى النمو ٠ ونلمس فى هـذا الفصل بحثا ممتازا للكواكبى عن الدين الاسلامى وكيف أنه جاء على أساس أن يكون الايمان مبنيا على العقل ، فيرفع عن العقول كل الاوهام والخيالات والخوف ٠

ثم يخاطب الكواكبى قومه محاولا ايقاظهم وارشادهم الى انهم خلقوا لغير ما هم عليه من الصبر على الذل والانحطاط ٠ فيذكرهم وينـــاجيهم ويحرك قلوبهم بأقوال تنبض كلها حماسا وتشع من كلماتها نور الهـداية لأنهـا صادرة من قلب مؤمن غيور على أهله حريص عليهم يتألم لألمهم لأنهم قومه وبنو وطنه :

يا قوم ، هداكم الله ، الى متى هذا الشقاء المديد والناس فى نعيم مقيم وعز كريم ، أفلا تنظرون ؟ وما هذا التأخر وقد سبقتكم الأقوام ألوف المراحل حتى صـــار ما بعــــدكم وراء أفلا تتبعون ؟ وما هذا الانخفاض والناس فى أوج الرفعة أفلا تغارون ؟٠٠

ياقوم ، وقاكم الله من الشر ، أنتم بعيدون عن مفاخر الابداع وشرف القدوة مبتلون بداء التقليد والتبعية فى كل فكر وعمل ، وبداء الحرص على كل عتيق كأنكم خلقتم للماضى لا للحاضر تشكون حاضركم وتسخطون عليه ، ومن لى أن تدركوا ان حاضركم نتيجة ماضيكم ، ومع ذلك أراكم تقلدون أجدادكم فى الوساوس والخرافات والامور السافلات فقط ، ولا تقلدونهم فى محامدهم ، أين الدين؟ أين التربية ؟ أين الاحساس ؟ أين الغيرة ؟ أين الجسارة ؟ أين

الثبات ؟ أين الرابطة ؟ أين المنعة ؟ أين الشــهامة ؟ أين النخوة ؟ أين الفضيلة ؟ أين المساواة ؟ هل تسمعون أم أنتم صم لاهون ؟

ويمضي الكواكبي مخــاطبا قومه بأســلوب أدبي بليغ كله حماسة وكل كلمة منه لا تصلح سواها لتعبيره ٠ وأهم مااستحدثه الكواكبي أنه نبذ الاسلوب المتكلف المصطنع والسجع المطرد فخرج من مستلزمات البيان القــديم في الحرص على السجع الى سهولة التعبير وعدم التكلف في العبارة ٠ وبعد أن يستعيذ بالله من قومه أن يكون قد مسهم فساد الرأى وضياع الحزم وفقد الثقة بالنفس وترك الارادة للغير يدعو لهم بالشفاء مما هم فيه قبل ألا ينفع انذار ولا لوم فاذا ما حل القضاء فلا يبقى غير الندب والبكاء ٠ ثم يدعو قومه لعدم التصاغر ٠

« ماذا ترجون من تقبيل الأذيال والأعتــاب وخفض الصوت ونكس الرأس ٠ أليس منشأ هـــذا الصغار كله هو ضعف ثقتكم بأنفسكم ٠٠

يا قوم جعلكم الله من المهتدين ، كان أجدادكم لا يتمنون الا ركوعا لله ، وأنتم تســجدون لتقبيل أرجـل المنعمين ولو بلقمة مغموسة بدم الاخوان ، وأجدادكم ينامون الآن في قبورهم مستوين أعزاء ، وأنتم احياء معوجة رقابكم أذلاء ٠٠

يا قوم الهمكم الله الرشد ، متى تستقيم قاماتكم وترتفع من الارض الى السماء أنظاركم ، وتميل الى التعالى نفوسكم ، فيشعر أحدكم بوجوده في الوجود ، فيعرف معنى الانانية ليستقل بذاته في ذاته ، ويملك ارادته واختياره ويثق بنفسه وربه ، لايتكل على أحد من خلق الله اتكال الناقص في الخلق على الكامل فيه ، أو اتكال الغاصب على مال الغافل ، أو الكل على سعى العامل ، بل يرى أحدكم نفسه انســانا كريما يعتمد على المبــادلة والتعاوض

فيسلف ثم يستوفي ويستدين على أن يفي ، بل ينظر في نفسه أنه هو الأمة وحده ٠

ويدعو الكواكبي قومه أن يثوروا على الظلم وألا يستكينوا له ٠ ولعله يريد أن يقول لهم ان الأتراك العثمانيين لم يسوموكم سوء العذاب الا لأنكم استحببتم الحياة على الموت ، فهو يرى أن بعض ضعاف النفوس هربت من الموت الى الموت وأنهم لو اهتدوا الى السبيل لعلموا ان الهرب من الموت موت ، وطلب الموت حياة٠

والعزة عند الكواكبي ألا يضن بنى قومه على الحفاظ على حريتهم بروحهم ودمهم « **ان الحرية هى شجرة الخلد وسقياها قطرات من الدم الأحمر المسفوح» ٠٠ ولو كبرت نفوسكم لتفاخرتم بتزيين صدوركم بورد الجروح لا بوسامات الظالمين ٠**

ويخص الكواكبي فى كتاب طبائع الاستبداد يوجه كثيرا من الكلمات الحماسية فنجده يخاطب المسلمين فيردد بعض الافكار التى تناولها فى كتاب أم القرى من حيث ان جرثومة داء المسلمين هو خروجهم عن دينهم ، دين الفطرة والحكمة ، دين النظام والنشاط٠ فأصبح الدين مشوشا فيه الكثير من البدع والتشديد ومصدر ذلك هم العلماء المنافقون ٠ ويشرح معنى كلمة لا آله الا الله وهى التى ينبغى أن تدفع بقائلها الى التصدى لكل ظالم وألا يؤله الا الله رب العالمين ٠

وما أجمل دعوة الكواكبي الى اخوانه العرب غير المسلمين حين يدعوهم الى تناسي الاساءات والاحقاد وكانت فتنة سنة ١٨٦٠ التى شبت فى لبنان وامتد أوارها الى سوريا حيث وقع الاقتتال بين المسلمين من الدروز والمسيحيين من الموارنة وراح ضحيتها آلاف الارواح وازهقت الكثير من الأنفس ٠ ولقد ثبت بما لا يدع مجالا للشك أن القوى الاجنبية كانت من وراء تلك الفتنة تغذيها

وتشجعها · فالكواكبى يدعو اخوانه المسيحيين أن يذكروا جيدا تلك القوى الاجنبية التى تريد أن تصطاد فى الماء العكر ويقول لهم:

يا قوم وأعنى بكم الناطقين بالضاد من غير المسلمين ، أدعوكم الى تناسى الاساءات والاحقاد ، وما جناه الآباء والأجداد ، فقد كفى ما فعل ذلك على أيدى المثيرين ، وأجلكم من أن لا تهتدوا لوسائل الاتحـــاد وأنتم المتنورون السابقون · فهذه أمم أوشريا وأمريكا قد هداها العـــلم لطرائق شتى وأصول راسخة **للاتحاد الوطنى** دون الدينى **والوفاق الجنسى دون المذهبى** والارتباط السياسى دون الادارى · فما بالنا نحن لا نفتكر فى أن نتبع احدى تلك الطرائق أو شبهها · فيقول عقلاؤنا لمثيرى الشحناء من الأعجام والأجانب : دعونا يا هؤلاء نحن ندبر شأننا ، نتفاهم بالفصـــحاء ، ونتراحم بالاخاء ، ونتواسى فى العزاء ، ونتساوى فى السراء · دعونا ندبر حياتنا الدنيا ونجعل الأديان تحكم فى الاخرى فقط · دعونا نجتمع على كلمات ســواء الا وهى : فلتحى الامة فليحى الوطن ، فلنحى طلقاء أعزاء · »

وفى هذا القول ما يؤكد ما سبق أن قلناه فى فصل سابق من ان الكواكبى ســـبق غـيره من الكتاب فى الدعوة الى الوحدة الوطنية فقد كان أول كاتب قومى اتضـحت عنده معـــالم الفكرة القومية ولم تختلط عنده هذه الفكرة بالفكرة الاسلامية أو غيرها على نحو ما يراه بعض المؤرخين ·

يحذر الكواكبى أبناء أمته العربية من الاستعمار الاوربى ، فهؤلاء المســـتعمرون لا يخرجون عن كونهم تجـار يأخذون فسائل الشرق ليغرســـوها فى بلدهم وهـــم (المســـتعمرون)

ينهبون ثروات البلد المحتل ، ويســـتغلون خيراته فى الوقت الذى يقتلون فى أبنـــائه روح العزة والاقدام ، يثبطون فيهم الهمة ويبثون فيهم التخاذل والتواكل والضعف والاستسلام ·

ثم يتناول الكواكبي قضية هامة وهي أن المستعمرين يحولون بين أبناء الشعوب المستعمرة وبين العلم ، ذلك أن العلم يحيي موات النفوس ويبعث الهمة ويقوى العزيمة ، فيقترن بطلبه طلب الحرية ، ومن ثم ناصبه المستعمرون العداء • فالشعوب الجاهلة أسلس قيادا وأكثر استسلاما ، وأضعف عزيمة ، وأقل همة ونشاطا •

كذلك يقف الاستعمار للغة القومية بالمرصاد يرى فى اضعافها والقضاء عليها بداية الطريق لفرض نفوذه ولغته •

والحقيقة أن شــواهد التاريخ كثيرة على ذلك ، وأن ما فعله المستعمر الفرنسى فى الجزائر خير شاهد وأصدق دليل • فقد جاء فى أحد التعليمات التى صدرت فى أوائل أيام الاحتــلال الفرنسى للجزائر ، ماكتبه مســئول فرنسى حيث قال : ان ايالة الجزائر لن تصبح فرنسية الا عند ما تصبح لغتنا هناك لغة قومية •

وفى تقرير رسمى وضع من جانب الفرنسيين سنة ١٨٤٩ مايلى:
« لا ننسى أن لغتنا هى اللغة الحاكمة ، فان قضــاءنا المدنى والجنائى والعقابى يجب أن يصدر أحكامه على العرب الذين يقفون فى ساحته بهذه اللغة • وبهذه اللغة يجب أن تصدر بأعظم ما يمكن من السرعة جميع البلاغات الرســمية •• وليس لنا أن نتنازل عن حقوق لغتنا ، فان أهم الأمور التى يجب أن نعتنى بها قبل كل شيء، هو السعى وراء جعل اللغة الفرنسية دارجة وعامة بين الجزائريين الذين عقدنا العزم على استمالتهم الينا ، وتمثيلهم عندنا ، وادماجهم فينا وجعلهم فرنسيين » •

ويرى الكواكبى أن الاستعمار يقف للغتنا العربية بالمرصاد •
« دخل الفرنساويون الجزائر منذ سبعين عاما ولم يســمحوا بعد لأهلها بجريدة واحدة تقرأ » •

والشرق مهد الحضارات ومهبط الأديان فلماذا استذله الغرب ؟ هذا ما يثيره الكواكبي في بحثه بعد ذلك وفي كلماته التي وجهها لبني قومه من الشرقيين •

« وأنت أيها الشرق الفخيم رعاك الله • ماذا دهاك ؟ ماذا أقعدك عن مسراك • أليست أرضك تلك الأرض ذات الجنان والأفنان ومنبت العلم والعرفان • وسماؤك تلك السماء مصدر الأنوار ومهبط الحكمة والاديان• وهواؤك ذاك النسيم العدل، لا العواصف والضباب • وماؤك ذاك العذب الغدق ، لا الكدر ولا الأجاج ؟ » •

رعاك الله يا شرق ماذا أصابك فأخل نظامك ، والدهر ذاك الدهر ما غير وضعك ولا بدل شرعه فيك ؟ ألم تزل مناطقك هي المعتدلة ، وبنوك هم الفائقون فطرة وعددا ؟ أليس نظام الله فيك على عهده الاول ، ورابطة الاديان في بنيك محكمة قوية ، مؤسسة على عبادة الصانع الوازع • أليست معرفة المنعم حقيقة راهنة أشرقت فيك شمسها ، أيدت بها عز النفس ، وأحكمت بها حب الوطن وحب الجنس ؟ »

وبعد أن يبحث الكواكبي في أسباب تدهور الشرق وتفوق الغرب علما فنظاما فقوة ، يرجع ذلك الى أن سببه الاستبداد • ويوصي الناشئين بعشر وصايا يدعوهم الى حفظها عن ظهر قلب والعمل بها وهي :

١ ـ ديني ما أظهر ولا أخفي •
٢ ـ أكون حيث يكون الحق ولا أبالي •
٣ ـ أنا حر وسأموت حرا •
٤ ـ أنا مستقل لا أتكل على غير نفسي وعقلي •
٥ ـ أنا انسان الجد والاستقبال لا انسان الماضي والحكايات •
٦ ـ نفسي ومنفعتي قبل كل شيء •

٧ ـ الحياة كلها تعب لذيذ ·
٨ ـ الوقت غال عزيز ·
٩ ـ الشرف في العلم فقط ·
١٠ ـ أخاف الله لا سواه ·

وينتقل الكواكبي بعد ذلك الى بحثه الأخير في كتابه « طبائع الاستبداد » وقد جعله بعنوان الاستبداد والتخلص منه ·

يستعرض في هذا الفصل حياة الانسان على هـــذه الارض وأنظمة الحكم على هذه البسيطة التي لم يهتد الناس بعد الى طريقة مثالية بشأنها ثم يطرح على بساط البحث عددا من المسائل ما هي الأمة ـ ما هي الحكومة ثم ما هي الحقوق العامة وتوزيع الضرائب والاعداد للدفاع ومراقبة الحكومة ورعاية الأمن ثم ما هو القـانون وكيف نفرق بين السلطات السياسية والدينية والتعليم وفي آخر هذه الابحاث التي يبلغ عددها خمسا وعشرين يبحث في كيفية رفع الاستبداد ·

والكواكبي في طرحه لهذه المباحث على بساط المناقشة يأتي بأسئله مبسطة تجعل القارىء يلقى الجواب الصـحيح تلقائيا · فيقول مثلا :

ما هي الحكومة ؟ هل هي سلطة امتلاك فرد لجمع يتصرف في رقابهم ويتمتع بأعمالهم ويفعل فيهم بارادته ما يشاء ، أم هي وكالة تقام بارادة الأمة لأجل ادارة شئونها المشتركة العامة ؟

وفي مبحث مراقبة الحكومة : هل تكون الحكومة لا تسأل عما تفعل أم يكون للأمة حق السيطرة عليها لان الشـــأن شأنها ، فلها أن تنيب عنها وكلاء لهم حق الاطـــلاع على كل شيء وتوجب المسئولية على أي كان ؟

وفيما يختص برفع الاستبداد نجده يتساءل هل ينتظر ذلك من الحكومة أم أن ذلك مهمة عقلاء الأمة وسراتها ·

ويقصد الكواكبى من هذه الابحاث أن يذكر ذوى الألباب على حد قوله · ولعله يريد أن يردد الآية الكريمة « وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين » ومن الطبيعى أن نجد الكواكبى يفصل فى المبحث الأخير وهو مبحث السعى فى رفع الاستبداد · ويرى أن لذلك قواعد ثلاث :

١ ـ الأمة التى لا يشعر كلها أو أكثرها بآلام الاستبداد لا تستحق الحرية ·

٢ ـ الاستبداد لا يقاوم بالشدة انما يقاوم باللين والتدرج ·

٣ ـ يجب قبل مقاومة الاستبداد تهيئة ماذا يستبدل به الاستبداد ·

ثم يتناول القاعدة الاولى فى رفع الاستبداد بالدراسة فيرى أن الامة التي يسودها الاستبداد هي أشبه ما تكون بأمة ميتة فاذا وجد فيها من تدفعه شهامته للأخذ بيدها والنهوض بها فعليه أن يبث فيها الحياة بأن يعلمها بسوء حالتها فاذا هى علمت يبتدأ فيها الشعور بآلام الاستبداد · وهو يشبه فى هذه الناحية قول دعاة الحرية والذين مهدت أقوالهم لقيام الثورة الفرنسية مثل فولتير وما أثر عنه قوله ليس الاستبداد هو الذى يولد الثورة وانما الشعور بالظلم ·

ويرى الكواكبى أن الاستبداد لا يقاوم بالشدة وليس معنى مهادنة هذا الاستبداد وانما هو يرى أن يكون ذلك باقناع أفراد الأمة بمساوئه وأضراره وهو هنا يدعو للتربية والتثقيف شأنه فى ذلك شأن الاستاذ الامام محمد عبده (١) ·

---

(١) عباس العقاد : محمد عبده ص ٢١١

ثم يرى الكواكبي انه ينبغي أن يسبق الثورة على الاستبداد تخطيط لما ينبغي استبداله بعده حتى لا يحل محله استبداد آخر. وما أظن أن ثورة من الثورات أهملت ذلك وقدر لها أن تنجح أو تستمر انها تصبح أشبه ما يكون بوميض للهب سرعان ما ينطفىء يحرق نفسه قبل أن يحرق غيره .

ويختم الكواكبي كتابه بأنه غير يائس من المستقبل فان يوم الله قريب الذى يقل فيه التفاوت في العلم وعندئذ تتكافأ القوات بين البشر فتنحل السلطة ويرتفع التغالب ، فيسود بين النـــاس العدل والتوادد فيعيشون بشرا لا شعوب وشركات لا دولا .

وهكذا يرتفع الكواكبي فوق نظـــرة الباحث الضيق الذى لا يتجاوز بحثه حدود بلده أو وطنه انه يبشر بمستقبل سعيد لكل بنى الانسان لا يظلم قويهم ضعيفهم يسودهم الاخاء والمحبة .

ولا عجب أن نجد كتابات الكواكبي وآراءه تجد لهـا صـدى لا فى البلاد العربية وحدها بل وفى غيرها من أنحاء العالم وستظل لها دورها وسيستمر لها سحرها حتى يرث الله الارض ومن عليها .

خاتمة

وبعد فهذه دراسة لشخصية عربية فذة جاد الزمان بها على الأمة العربية وهى أحوج ما تكون اليه ينبهها من غفلتها ويوقظها من سباتها ويبث فيها روح الأمل ويزيح عنها كابوس اليأس والقنوط ويذكرها بأمجادها وهو يبنى الأمل الكبير على شباب هذه الأمة وهم طلائع الغد وأمل المستقبل • ومن أجمل عباراته يخاطب بها الشباب قوله :

« يا قوم أريد بكم شباب اليوم رجال الغد شباب الفكر رجال الجد أعيذكم من الخزى والخذلان بتفرقة الأديان ، وأعيذكم من الجهل ، جهل ان الدينونة لله وهو سبحانه ولى السرائر والضمائر ، ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة •

أناشدكم يا ناشئة الأوطان ، أن تعذروا هؤلاء الواهنة الخائرة قواهم الا فى ألسنتهم ، المعطل عملهم الا فى التثبيط ، الذين اجتمع فيهم داء الاستبداد والتواكل ، فجعلاها آلة تدار ولا تدير • وأسألكم عفوهم من العقاب والملام ، لأنهم مرضى مبتلون ، مثقلون بالقيود ، ملجمون بالحديد ، يقضون حياة خير مافيها أنهم آباؤكم • »

وواضح من هذه العبارات السابقة ان الكواكبى يخشى أن تمتد عدوى القنوط واليأس من بعض رجال زمانه الى شباب هذه

الأمة العربية التى كان يأمل الاصلاح والنجاة لهذه الامة على أيديهم. فبعد أن يذكر بعض العادات السيئة التيألفها كثير من الناسعلى عهده يرجو الشباب أن ينشأ على غير ذلك فيقول :

نحن ألفنا الأدب مع الكبير ولو داس رقابنا . ألفنا الثبات ثبات الأوتاد تحت المطارق . ألفنا الانقياد ولو الى المهالك . ألفنا أن نعتبر التصاغر أدبا ، والتذلل لطفا ، والتملق فصاحة ، والكلفة رزانة ، وترك الحقوق سماحة ، وقبول الاهانة تواضعا ، والرضا بالظلم طاعة ، ودعوى الاستحقاق غرورا ، والبحث عن العموميات فضولا ، ومد النظر الى الغد أملا طويلا ، والاقدام تهورا ، والحمية حماقة ، والشهامة شراسة ، وحرية القول وقاحة ، وحرية الفكر كفرا ، وحب الوطن جنونا .

أما أنتم حماكم الله من السوء ، فنرجو لكم أن تنشأوا على غير ذلك ، أن تنشأوا على التمسك بأصـــول الدين ، دون أوهام المتفننين ، فتعرفوا قدر نفوســـكم فى هذه الحيـــاة فتكرمونها ، وتعرفوا قدر أرواحكم وانها خالدة تثاب وتجـــزى ، وتتبعوا سنن النبيين فلا تخافون غير الصانع الوازع العظيم . ونرجو لكم أن تبنوا قصور فخاركم على معالى الهمم ومكارم الشيم ، لا على عظـام نخرة ، وان تعلموا انكم خلقتم أحرارا لتموتوا كراما فاجهـدوا أن تحيوا تلكما اليومين حياة رضية . يتسنى فيها لكل منكم أن يكون سلطانا مستقلا فى شئونه ، لا يحكمه غير الحق ، ومدينا وفيا لقومه لا يضن عليهم بعين أو عون ، وولدا بارا لوطنه ، لا يبخل عليـــه بجزء من فكره ووقته وماله ، **ومحبا للانسانية يعمل على أن خـير الناس أنفعهم للناس ، يعلم ان الحياة هى العمـــل ووباء العمل القنوط ، والسعادة هى الأمل ، ووباء الأمل التردد** ويفقه ان القضاء والقدر هما عنـد الله ما يعلمه ويمضيه وهما عنـد الناس السعى والعمل . ويوقن ان كل أثر على ظهر الارض هو من عمل اخوانه

البشر ، وكل عمل عظيم قد ابتـدأ به فرد ثم تعاوره غيره الى أن كمل ، فلا يتخيل الانسـان فى نفسـه عجزا ولا يتـوقع الا خيرا وخير الخير للانسان أن يعيش حرا مقداما أو يموت » •

تلك بعض وصـايا الكواكبى لشـبابنا العربى وما أظن ان شبابنا أحوج لشيء أكثر من ذلك الذى خاطبه به هذا الكاتب العربى الكبير بل ما أظن ان المشرفين على أمور الشباب فى كل قطر عربى يوصون جيل الغد بأكثر ما نادى به الكواكبى • هو يدعوهم الى العزة والحياة الحرة الكريمة لايستكينون للقيم ولا يرضون الذل ، يطالبهم بعدم التردد وعدم الاستسلام لليأس والارتكان على ان ما فيه وطنهم هو من ارادة الله وعلينا الرضا والقبول • فان الله سـبحانه وتعالى اعطانا القدرة واعطانا الفـكر والارادة لنعمل وقد راينـا كيف ان الكواكبى حمل كثيرا على دعاة الجبرية والقدرية وراى ان الخطر من هذه النـاحية خطر كبير وعظيم ، ذلك ان دعاة اليـأس والتردد والخذلان ينفثون سمومهم من هذه الناحية باسم الدين ، والدين منهم براء •

أما عن بعض صفاته الجسمية فيقول السيد كامل الغزى (١) انه (الكواكبى) كان مربوع القامة ، حنطى اللون ، مستدير الوجه ، خفيف العارضين ، أقنى الأنف ، ذا عينين زرقاوين ، معتدل المقلة لا غائرها ولا جاحظها ، معتدل فتحة الفم ، ازج الحاجبين واسـع الجبين ، صغير الأطراف معتدل الجسم بين السمن والهزال أسـود الشعر •

اما عن اخلاقه وسجاياه :

فقد جاء وصف الغزى لها مطابقا لأوصاف كل المعاصرين له كان منذ حداثة سنه تلمع فى محياه مخايل النجابة والشهامة وعلو

---

(١) مجلة الحديث العدد ٦ سنة ١٩٢٩

الجناب وحسن الطبع لا قيمة عنده للمال ، ولوع بالتفضل على أقرانه وخلانه لا يرضى ان يسبقه بالبذل غيره يأنف من الكذب والتدليس والغيبة والنميمة ، ويرى التلبس بهذه الخلال الذميمة دناءة وغدرا ، وجورا في الطبع ، وكانت نفسه العزيزة عليه تأبى الخضوع لأهل المجد الباطل ولا يرى ما يطفىء نار غضبه منهم أفضل من قهرهم واذلالهم ، وأغرب عاطفة فيه انه كان لا يرى هدفا جديرا يصوب اليه سهام الطعن والتنديد غير أعاظم الرجال كالولاة والمتصرفين الذين ساءت سيرتهم وقبحت أعمالهم . وكان ذلك اعتقادا من الكواكبي ان الواجب على المصلح أن يبدأ باصلاح الرأس فاذا صلحت صلح الجسد كله بالطبع .

وكان لا يسوءه شيء مثلما يسوءه الظلم وعدم العدل فالحاكم الجائر ينبغي أن يتصدى له كل مؤمن بالله لان ذلك أوجب الواجبات عليه . وكثيرا ما كان يردد البيت الشهير .

اذا لم تقم بالعدل فينا حكومة فنحن على تغييرها قدراء

ونجد صفيه وصديقه المرحوم كامل الغزى يؤكد في حديثه عن الكواكبي انه كان يقول بالطفرة ويعتقد بنجاحها اذا قرنت بالحزم والعزم والثبات وهو يرى التدرج في نيل المطالب تضييعا للعمر ، وافساحا لمجال حدوث ما قد يجعل المطلوب ميئوسا منه . وقد اشتهر ذلك عن الكواكبي حتى قال أحد أصدقائه المخلصين في ولائه : أن السيد عبد الرحمن مجموعة حماس لاعيب فيه سوى قوله بالطفرة وسوى تلك الجرأة المفرطة الأمر الذى كدر عليه موارد الحياة وأسلمه الى يد الاضطهاد . وقطع عليه خط الرجعة في راحته . فأمضى حياته يتجرع المصائب يودع مصيبة ويستقبل أخرى وانطبق عليه قول الشاعر :

واذا كانت النفوس كبارا
تعبت في مرادها الأجسام

وكان الكواكبي طموحا للمعـالي لا يلجأ الى الاناة والتردد بل كان يثب الى مناطقها وثبـــة دون تدرج ولا تراخ في قطع المراحل الطويلة المؤدية اليها فلا يشعر الا وقد عرضت له عقبة تحول بينه وبين مقصده • ويمضى الغزى يستشهد على ذلك بانه كان لا يطرب للتغنى ولا تميل نفسه الى مجالس اللهو والطرب ويروى ان الكواكبى قال له وهم في مجلس يتذاكرون السماع وتأثيره في النفوس « هل الطرب بالغناء الاوهم وضعف مزاج واضاعة وقت فيما لا يجدى ؟ »

تلك كانت بعض اخلاق وسجايا عبد الرحمن الكواكبى • اما عن سعة علمه وقدرة تحصيله في العلوم فما شك أحد من معاصريه أو ممن أرخوا له على انه بلغ في ذلك ذروة قل أن يبلغها أحد مثله •

ألم الكواكبى باللغة التركية فأجادها وعمل مترجما في عدد من الصحف يترجم مقالاتها الى العربية على نحو ما ذكرنا ويقـــول الغزى « سمعت مرات عديدة من المرحـوم زهدى أفندى قاضى حلب يقول : ان السيد عبد الرحمن قاموس باللغة التركية وكثيرا ما كان يسأل عن بعض كلمات وتراكيب تركية شذت عن فهمه مع أنه كان من أكثر علماء الأتراك • اما عن المامه باللغـــة العربية وقواعدهـا وأصول الكتابة بها وحسن التعبير واختيار الكلمة المناسبة فما أظن ان هناك نقدا يمكن أن يناله في هذه الناحية • واشتهر عن الكواكبى سهولة الفاظه فقد خلت أو كادت من الغريب وكان يرســل عبارته فليس فيها سجع ملتزم مما يقيد حرية الكاتب وأدخل الى النثر أمورا جديدة • فقد كان النثر قبـل الكواكبى لا يتنـــاول الموضـــوعات الاجتماعية الا فيما ندر فاذا بالكواكبى يستعمل الأسـلوب العلمى المتأدب وهو يوضح الظواهر الاجتماعية ويتناول مشكلات عصره• اما قدرته على النقد وتمحيص الحقائق واقامة البراهين والحجج على مايحاول اثباته أو نفيه فحدث عن ذلك ولا حرج ويذكر الغزى عنه روحـــه المرحة فيقول : كنا نســـمر معه وعددنا يزيد على عشرة أشخاص

فيشغل كل واحد منا بموضوع يقترحه عليه ويشاكله به ، ويبين له فيه خطأه وصوابه ٠

وكان بارعا بفنون السياسة عالما باحوال الدول واسع الاطلاع على حقوق الدول ونهضاتها وثوراتها ٠ ويذكر المؤرخون لحياته انه كان متضلعا بقوانين الدولة العثمانية وأنظمتها مع المام كاف بفروع الفقه ونصيب وافر من علوم اللغة العربية فى النحو والصرف ٠

ومات عبد الرحمن الكواكبى ولكن فكره لم يمت وآراءه لم تبل لأنها أبقى على الزمن من أن يطويها في سجل النسيان ٠ وظلت الأيام تحملها فى ريح رخاء سهل لتلقنها من جيل الى جيل من ابناء هـذه الأمة تدعوهم أن يعملوا بها وأن تكون تلك الآراء دستوراً لهم وشريعة ومنهجا لأنها صادرة عن قلب مخلص مؤمن بهذه الأمة أن تحيا حياة كلها عزة وسؤدد لأن الله سبحانه وتعالى قد شرفها فجعلها أمة وسطا وجعلها شاهدة على باقى الأمم يوم يرث الله الأرض ومن عليها ٠

فهـــرس

رقم الايداع بدار الكتب ١٥٨٣/١٩٧٢

الهيئة المصرية العامة للكتاب

المركز الرئيسى ١١١٧ شارع كورنيش النيل – القاهرة – ج.ع.م.

تليفون : ٧١٠٠٥٥/ ٧١٠٠٥٨ تلغرافياً : يانشرو

الادارة العامة للتوزيع : ١٧ شارع قصر النيل – القاهرة – ج.ع.م.

تليفون : ٤٥٥٨٩/ ٤٧٤٣٦

مكتبات القومية للتوزيع فى ج . ع . م .

القـــاهرة

٣٦ شارع شريف	ت : ٤٠٠١٢	١٩ شارع ٢٦ يوليو	ت : ٥٥٠٣٢
٥ ميدان عرابى	ت : ٤٦٣٨٣	٢٢ شارع الجمهورية	ت : ٩١٤٢٢٣
١٣ شارع المبتديان	ت : ٢١١٨٧	الباب الأخضر بالحسين	ت : ٩١٣٤٤٧

الاسكندرية : ٤٩ شارع سعد زغلول ٢٢٩٢٥ الجيزة : ١ ميدان الجيزة ت: ٨٩٨٣١١

دمنهور : شارع عبد السلام الشاذلى ٢٦٠٥ المنيا : شارع ابن خصيب ت: ٤٤٥٤

طنطا : ميدان الساعة ٢٥٩٤ اسيوط : شارع الجمهورية ت: ٢٠٣٢

المحلة الكبرى : ميدان المحطة ٤٢٧٧ اسوان : السوق السياحى ت: ٢٩٣٠

المنصورة : أول شارع الثورة ٣٨٦٤

مراكز التوزيع خارج ج . ع . م

لبنان : الشركة القومية للتوزيع – بيروت – شارع سوريا بناية أبناء صمدى وصالحة

العراق : الشركة القومية للتوزيع – بغداد – ميدان التحرير – عمارة فاطمة

توكيلات وعملاء دائمين خارج ج . ع . م

الكويت : وكالة المطبوعات ٢٧ شارع فهد السالم بالكويت

الاردن : مكتبة المحتسب – عمان

ليبيا : محمود طرف الشويهدى – طرابلس

اندونيسيا : عبد الله محمد العيدروس – جاكرتا

تونس : الشركة التونسية للتوزيع ٥ شارع قرطاج – تونس

الجزائر : ٩٢ شارع ديدوش مراد بالجزائر العاصمة

المغرب : المركز الثقافى العربى للنشر والتوزيع ٤٢ – ٤٤ الشارع الملكى – الاحباس – الدار البيضاء

هولندا : مكتبة بريل – ليدن

الهيئة المصرية العامة للكتاب

فى خدمة القارىء العربى

الثمن ١٠ قروش

الهيئة المصرية العامة للكتاب